عمران بن محمد العمران

من أعلام الشعر اليمامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤١٣هـ / ١٩٩٢م

مكتبة
عمر بن محمد العراقي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

إلى صاحب السموّ الملكيّ
الأمير الجليل:
سلمان بن عبد العزيز آل سعود
أمير منطقة الرياض - «اليمامة قديمًا»
أقدّم كتابي هذا ..

عمران بن محمّد العمران

Washington

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من كتاب (من أعلام الشعر اليمامي) في عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٨م) أي منذ نحو ستة وثلاثين عاماً.

وقد خطر لي ـ بعد طول هذا الأمد ـ أن أعيد طبعه ونشره، ليكون ماثلاً أمام شداة الأدب اليوم وأمام المعنيين بماضي التاريخ الأدبي لبلادنا.. مهتبلاً الفرصة كي أعيد النظر في بعض مضامينه؛ مستدركاً ما كان في تلك الطبعة من خطأ في المفهوم أو خَطَلٍ في الحكم، مضيفاً إليها ما عنّ لي إضافته ـ من شروح أو زيادات ـ في ضوء ما تيسر لي من مصادر لم تكن متاحة من قبل، حاذفاً منها ما تقتضي الضرورة حذفه، آخذاً بالاعتبار في كل ذلك آراء من هم أعلم مني وأوسع إطلاعاً ومن هم أوثق في مجال البحث والتحري، مستفيداً من ملاحظات القراء والكاتبين والناقدين للكتاب في طبعته الأولى.

وعساي ـ من بعدُ ـ أن أكون، بعملي المتواضع هذا، قد قاربت الصواب، وعسى أن يعذرني القارىء على الهنات والهفوات.

والله من وراء قصدي.

عمران بن محمد العمران

الرياض ـ رجب ١٤١٢هـ

يناير ١٩٩٢م

مقدمة

ترددت كثيراً في كتابة هذه المقدمة.. وقد وسوس إلي «خيالي» التائه، أن أطلب إلى أحد أدبائنا الكبار ـ أو من يسمونهم كذلك ـ كتابتها، ليكون في ذلك شيء من أسباب رواج الكتاب وانتشاره.

ولكن نظرية «الاعتدال» ـ أو هكذا يحلو لي تسميتها ـ انتصرت مؤخراً.. فما أنا ـ من قبل ولا من بعد ـ ممن يؤمن بجدوى صنيع كاتبي المقدمات وأثرهم ـ ولو كانوا من الشهرة بمكان ـ في تصريف «بضاعة» الناشيء ونفاقها.. بل إنني لا أؤمن بالمقدمات نفسها.. فهي ـ عرفاً ـ دريئة الناشيء وتكأة المتحذلق!.. أليست كذلك؟.

ولست أدري بالضبط من هو مخترع «فن المقدمات».. ولكن يخيل لي أنه عاش في حقبة من حقب «التجويف» العملي.. إن جاز التعبير.

ولكن ـ وما دام الأمر قد بات حقيقة معترفاً بها ـ إن لم تكن هي من مقومات التأليف في رأي طائفة من الناس ـ فلماذا لا أكتب هذه الأسطر أو الصفحات المعدودة، سيما وإنني أعتبرها ـ في قرارة نفسي ـ «هامشية» الشكل والمعنى؟!.

وإذ لا مندوحة من هذه «الفذلكة» فلا ضير أن أجعلها مجملاً لفكرة هذا الكتاب.. وأن ألتمس فيها ـ بدوري ـ «مكمناً» للعجز وتبريراً للقصور..

والكمال ليس من سمات البشر.

وعسى ألا تكون هذه العبارة الأخيرة بداية الشوط.

* * *

في عام ١٣٧٠هـ ـ وكنت آنذاك طالباً بالسنة الأولى الثانوية ـ وقع بيدي عدد من مجلة «المنهل» كان قد صدر في صيف ١٣٦٧هـ[١]، وكان من مواده بحث أثري تاريخي عن (اليمامة)[٢] لأحد الباحثين[٣]. . ومضيت في قراءة هذا البحث حتى أتيت على آخره. . وقد راعني فيه وأثار انتباهي أن رأيت الباحث ينسب إلى هذا الإقليم عدداً من الشعراء. . الأمر الذي جعلني أزداد شغفاً وأندفع أكثر وأكثر لتتبع تاريخ الإقليم سياسيًّا وأدبيًّا. وكان لابد ـ كوسيلة ـ أن أتتبع أسماء الأودية والبطاح والجبال والقرى التي تحتويها اليمامة، فلجأت إلى كتاب (معجم البلدان) للرحالة ياقوت الحموي، ثم إلى كتاب (معجم ما استعجم) للبكري ـ وهو أدق من الأول ـ وخرجت بطائفة لا بأس بها عن هذا الإقليم على وجه العموم. . وكانت النتيجة أن جمعت تلك «القصاصات» التي كنت قد دونتها، وأخرجتها على هيئة مقال تاريخي. . ولكنه مبتور. . فعُدت

---

(١) المنهل ـ العددان (١١، ١٢) من السنة الثامنة.

(٢) نعني باليمامة ـ في نطاق بحوث هذا الكتاب ـ المفهوم الجغرافي الطبيعي لها. أي ذلك الإقليم الذي يمثل الجانب الشرقي الجنوبي من بلاد نجد في الاصطلاح المعروف اليوم، حيث تلتف صحراء الدهناء من الشرق حول اليمامة، وحيث تشمل الأفلاج والفُرع (الحريق وحوطة بني تميم) والخرج والعارض وسدير والمحمل والشعيب والوشم. ولا نعني المفهوم السياسي أو الإداري في العصرين الأموي والعباسي والذي كان يحتضن ما وراء ذلك، حيث كان نفوذ بعض الولاة يمتد ليشمل ـ في معظم الفترات ـ البحرين وعالية نجد ويمتد إلى حدود السراة وتخوم اليمن وإلى مشارف البصرة.

(٣) هو المرحوم الأستاذ رشدي الصالح ملحس من كبار رجالات الديوان الملكي في عهد الملك عبدالعزيز، وهو من أصل سوري، وكان شغوفاً ومعنياً بالبلدانيات ولاسيما ما يتصل منها بالمملكة العربية السعودي، فهو يُعَدُّ بحق رائداً في هذا المجال، وله جملة من البحوث نشرت في الصحف السعودية في الخمسينيات والستينيات من القرن الهجري المنصرم، كما أن له بعض المؤلفات.

إلى بعض كتب في التاريخ مستعيناً بفهارسها في أسماء الأمكنة، بغية الحصول على معرفة تبعية هذا الإقليم السياسية في عصر ما، أو معرفة اسم والٍ أو أمير نصبه حاكم مّا عليها. . فكان لي بعض الشيء. . واستقام المقال نوعاً ما. . ولكنه ـ برغم ذلك ـ لا يزال مبتوراً. لذا فضلت بقاءه لدي حتى يستكمل مقومات الكتابة الوافية. . ليكون «نواة» لتاريخ هذا الجزء الهام من بلادنا، فإنَّ أحداً من «أهل القلم» الماضين، لم يخطر له على بال، أن يدوِّن تاريخه أو يُعنى به من قليل أو كثير.

ولما كان فرضاً وطنيًّا عليَّ أن أبحث في ناحية من نواحي ماضي هذا الإقليم؛ رأيت أن الناحية الأدبية أدنى تناولاً وأيسر مراجع. . مفضلاً البحث في النواحي الأخرى لحين مناسب.

فما من كتاب من أمات الأدب العربي القديم، إلا ويطفح بتراجم لشعراء من اليمامة، ويفيض في وصف أشعارهم وإيضاح حيواتهم، ويشيد بالتعاون الأدبي بين اليمامة وجاراتها ولاسيما العراق.

وكان كتاب (الأغاني) لصاحبه أبي الفرج الأصبهاني خير خدين وصاحب، منذ خطرت لي فكرة حديث الأدب اليمامي، فعكفت أتتبعه، لعلي أجد بين ثناياه شاعراً يماميًّا طوته العقود في أسمال الإهمال، لا يعرف الناس عنه شيئاً. . وفعلاً كان لي ما أردت وما تمنيت.

والواقع الذي لا مشادة فيه؛ أن «أبا الفرج الأصبهاني» هو الرجل القدير الذي استطاع أن يلم شتات الأدب العربي في أعصره الأولى، وأن يضمه في هذا السفر الخالد الذي يعتبر ـ بلا غلو ـ مفخرة الضاد وكنز خلودها.

ولن يَعرف قدر (الأغاني) حق المعرفة؛ إلا من اضطر إليه، وما إخال باحثاً إلا مضطراً إليه، فما من كتاب يضاهيه في بابه أو يجاريه في مضماره.

وما أحسب مؤلفاً جاء بعد إلا عيالاً عليه.

رحم الله «أبا الفرج» وغفر له زلاته. فقد كان مدرسة في الأدب والتاريخ، وكان كتابه مورداً عذباً، يستقي منه كل بحاثة.. وإنّ كل كاتب في شئون الفكر العربي القديم سيلهج ـ أبد الأيام ـ بفضله.

على أن كتباً أخرى ـ سيراها القاريء في نهاية كتابي هذا ـ كانت «روافد» تمد بفيضها اليراع، وتروي بسلسبيلها الغليل، ولا يمكن بحال من الأحوال جحد فضلها أو إنكار جميلها عليَّ وأنا أكتب بعض التراجم.. وأن «أستاذاً» بحاثة[1] كان له مزيد الفضل في التوجيه والإرشاد حول بعض المراجع وحول تحري صحة الأخبار ودقتها.. كما كان له فضل التشجيع وفتح المجال للبحث والحث على المثابرة على ما أنا بصدده من كتابة. فله مني عاطر الشكر وخالص التقدير.

* * *

كُتبت أكثر فصول الكتاب فيما بين عامي ٧٢ـ١٣٧٥هـ أي في خلال سنوات ثلاث، على فترات متقطعة، ونُشرت في حينها في صحيفة «اليمامة» الزاهرة ـ يوم أن كانت مجلة وبعد أن أصبحت جريدة ـ ما عدا ترجمة واحدة نشرتها في جريدة «البلاد السعودية» في رمضان ١٣٧٢هـ وهي أول محاولة في هذا الشأن[2].

ولم أُعْنَ بترتيب الشعراء حسب عصورهم، عندما بدأت الكتابة؛ بل كلما خطر لي اسم شاعر أو وقعت باصرتي على شاعر يمامي في مرجع من مراجع الأدب الكبرى؛ سارعت بدراسته والكتابة عنه، فحيناً أكتب عن شاعر عاش

---

(١) هو الأستاذ حمد الجاسر

(٢) هي ترجمة الشاعر يحي بن طالب.

في أيام مجد بغداد.. وتارة أتناول بالدرس آخر عاصر الدولة الأموية.. وهكذا..

بيد أني ـ في هذا الكتاب ـ رأيت أن من الأنسب ترتيب المترجم لهم على حسب عصورهم، ليكون الكتاب منساقاً مع مجرى الأيام والحوادث.

وعندما عنَّ لي جمع هذه الفصول في كتاب؛ رأيت أن أضيف إليها بعض تراجم لشعراء لم يسبق أن ترجمت لهم أو درست أشعارهم دراسة أدبية.

كان من أهم أغـراض الكتابة، أن أظهر لعشاق الأدب وشداته، بعض الشعراء المغمورين الذين لن يعثر لهم الباحث على أثر إلا في أصول الأدب الضخمة؛ فلم أعرض ـ مثلاً ـ للأعشى أو لجرير، ليقيني التام أن القاريء العادي ـ بلهَ سواه ـ يعرف عنهما الشيء الكثير.

ولكني في هذا المؤلف، أضيفهما كتكملة لهذا التاريخ، وكمفخرة من مفاخر هذه البلاد على اللغة والأدب.

عفـواً.. أيها القاريء العزيز.. فإن الشيء الذي أود تفاديه.. والذي أرجو من صميم مهجتي وعمق نفسي ألا تؤاخذني عليه أو تصمني به، هو ألا تتهمني بالنعرة الإقليمية.. فذلك آلم ما يحز في الضمير وأحر ما يشوي الفؤاد.

علم الله أنني من أشد عباده «كفراً» بهذه «الإقليمية» الضيقة الموحلة وإن أتفه سمة تضمها حشايا المرء لهي التعصب الإقليمي المقيت؛ فهو أصل أدواء المجتمعات لدى الأمم والشعوب، وسبب الفرقة في كل زمن ومكان، ومنفذ الحاقدين والطامعين إلى نفث سمومهم وتحقيق مآربهم.

إنني أكتب «أدباً».. والأدب لا يعترف بذلكم المرض الاجتماعي الخطر.

ومعاذ الله أن أكون كذلك.

فأنا أدعو إخواني في الأحساء ـ مثلاً ـ لأن يكتبوا عن (ابن مقرب) كشاعر أحسائي[1] له موهبته وفنه وعبقريته، وأن يؤلفوا عنه وعن غيره من أدباء (هجر) المجاميع والكتب.

وأدعو إخواني في شمالي نجد، أن يمروا على كتب التاريخ الأدبي قراءة وتمحيصاً، ليكتبوا لنا عن امرىء القيس وزهير وحاتم وعنترة وسواهم من فحول القريض الذين شهرت بهم تلك الربى والرياض.

وأدعو إخواني في خُبُوت تهامة وشِعاف السراة، وفي كل صقع من أصقاع هذه الديار إلى تلمس كنوزهم الفكرية في مكامنها لينفضوا عنها عاديات النسيان وأغبرة الإهمال، وليجلوها ناصعة طرية لبني جلدتهم.

أدعو إخواني كافة ـ كتاباً وباحثين ـ في هذا الكيان الأغر الكريم الذي وحَّد الكلمة ولمَّ الشمل وصهر الجميع في «بوتقة» أول وحدة عربية فريدة من نوعها في العصر الحديث قائمة على أساس من «العروبة» المسلمة المؤمنة برسالتها.. أدعوهم لخدمة تراثنا العظيم.

أدعو كل شاب مثقف واعٍ، أن يدرس ماضي وطنه الأصغر ومسقط رأسه، ليخرج لنا ـ بعد ذلك ـ ما سبح به خياله وما رقص له فكره.. واتهمه بالعقوق في حق وطنه، إذا هو لم يفعل أو يحاول.

إن في بلادنا لتربةً خصبة للكتابة، وإن بلاداً أنجبت عمالقة الشعر ودهاقنة

---

(١) وقد قُدِّر لي أن أنهض بذلك، فيما بعد؛ فألَّفت كتابي (ابن مقرب ـ حياته وشعره) الذي طبع سنة ١٣٨٨هـ ويعتبر أول مؤلف عن هذا الشاعر. وقد رجع إليه من تناولوا الحديث عن ابن مقرب وبحثوا في شعره وحياته بعد ذلك.

الفكر، لقمينة بتبوء الصدارة في عالم الفنون كافة، وما أحسب أديباً ـ شاعراً أو ناثراً ـ إلا ويحس أن في رقبته ديناً لا مناص من أدائه! . . ولكن الواجب يستحث أهله . . فهل نحن مسارعون؟![1].

وبعد:

فإن وجد القاريء في هذا الكتاب ـ على ما بذل فيه من جهد ـ ما يروق ذوقه ويستسيغ إدراكه، فذلك حسن ظن منه ـ ليس إلا ـ وإن تكن الأخرى ـ وليست ببعيدة ـ فليشفع له أمام ناظره، أن فصول الكتاب كتب معظمها في مرحلة الدراسة الثانوية، وهو اعتبار يجب ـ فيما أرى ـ أن يأخذ به الناقد الكريم، وأن يضعه نصب عينيه.

وأكرر مرة ثانية: أن الكمال ليس من سمات البشر!.

ومرحباً بالنقد إذا كان للبناء.

عمران بن محمد بن عمران

الرياض: رجب ١٣٧٦هـ

فبراير ١٩٥٧م

---

(١) ولقد تحقق الكثير من ذلك ـ فيما بعد ـ فأُلِّفت العشرات، بل المئات، من البحوث والرسائل والكتب في شتى فنون المعرفة المتصلة بماضي البلاد وحاضرها، وأصبح لدينا حشد من الباحثين الذين أثروا الحياة الفكرية بما قدموه من دراسات تاريخية وأدبية ومعاجم جغرافية ورحلات وتراجم . . إلخ.

الفِنْـــدُ الزِّمَّانـــي

...ـ نحو ٧٠ ق.هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

في اللغة: الفِنْدُ ـ بكسر الفاء وسكون النون ـ هي القطعة العظيمة من الجبل، أو الأرض الصلبة التي لم يطأها ماطر، أو الغصن.

و«الفِنْدُ» لقب غلب على شاعر مبرز من شعراء اليمامة في العصر الجاهلي، نتناوله في هذا الحديث ضمن سلسلة دراساتنا عن أعلام الشعر اليمامي..

و «الزِّمَّاني» ـ بتشديد الزاي المكسورة والميم ـ نسبة إلى «زِمَّان» وهو أحد أجداد الشاعر.

أما اسم شاعرنا، فهو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمَّان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ـ من ربيعة بن نِزار بن معدَّ بن عدنان.

كانت مساكن عشيرته اليمامة، وكان سيدَ بكرٍ في زمنه.. كما كان شجاعاً فارساً، وقائداً محنكاً، وحكيماً مجرباً، وقد شهد الحرب الشهيرة بين بكر وتغلب ـ حرب البسوس ـ وعمره يومئذ يقارب المائة عام على ما يقول الرواة، وقدر له أن يلعب دوراً بطوليًّا هاماً في هذه الحرب الضروس.

وتوفى الفند حوالي سنة ٥٥٥م، أي قبل الهجرة بنحو سبعين عاماً[1].

---

(١) الأعلام للزركلي ص ٢٦٠ ج٣.

بطولته:

الفِنْد أحد شجعان العرب وفرسانهم المعدودين.. يُرْوَى أنه لما اشتد الحرب على بني بكر ـ قبيلة الشاعر ـ أرسلوا إلى من باليمامة من بكر بن وائل يطلبونهم النجدة والنصرة، فلبّى هؤلاء الطلب وأمدوهم بالفِنْد الزماني الذي سار إلى بني شيبان بعد أن اختار من فرسانه سبعين فارساً في غاية البأس والشدة والشجاعة، وبعث بنو حنيفة إلى بني شيبان يقولون لهم: لقد بعثنا لكم ألفاً وسبعمائة فارس.. وعندما قدم الفند مع فرسانه السبعين دهش الشيبانيون وقالوا لهؤلاء القادمين: وأين جماعتكم؟.. فقال الفِنْد بنفس مطمئنة واثقة: أنا بألف فارس، وفرساني السبعون بسبعمائة فارس.. فقال واحد منهم: «ذرني فكل ردف مجال».. وقد صارت مثلاً.. وقد حارب الفِنْد وفرسانه معهم حرباً عواناً أبدى فيها هو وفرسانه ضروباً من الشجاعة والإقدام والاستبسال.. وقد حضر ـ ضمن ما حضر ـ وقعة «يوم التحالق» وكان له فيه بلاء حسن وبطولة فذة.

ويُروى أن بكراً عطفت على تغلب في المعركة، فرأى الفِنْد في الحومة رجلاً من تغلب وخلفه رديف، فطعنه الفند برمحه وانتظمه مع رديفه بتلك الطعنة، وقد سجل الفِنْد ذلك في شعره، في القطعة التي مطلعها:

أيا طعنة ما شيخ كبير يَفَنٍ بالِ[1]

وسنعرض لهذه القصيدة عما قريب.

ديانته:

ليس بين أيدينا من النصوص القديمة ما يسعفنا بما يؤكد ـ في يقين ـ معتقد الشاعر الفِنْد.

---

(١) الحماسة لأبي تمام ص ٢٩٩ ج١.

ولكن لويس شيخـو اليسوعي قد أتى بترجمة للشاعر في كتاب «شعراء النصرانية»[1] . . فهو ـ بهذا الاعتبار ـ قد عدَّه من ضمن شعراء المسيحية .

بيد أن ذلك لا يلزمنا بالقول بنصرانية الشاعر، خاصة وأن الأب اليسوعي قد جمع كتابه على أساس لا يخلو من عاطفة دينية، وكان كل همه أن يجمع شعراء النصرانية في كتاب خاص . .

والشيء الذي هو في حكم المرجح هو أن النصرانية لم تتسلل إلا قليلاً إلى قلب جزيرة العرب[2] ـ موطن الشاعر ـ وإن كانت قد تسللت ـ بشكل واضح ـ إلى أطـرافهـا الشمالية والشرقية حيث اعتنقها أهل الحيرة والغساسنة وإلى الجزء الجنوبي الغربي منها كنجران مثلاً ـ كما تسللت إلى بعض مدن الحجاز التي كانت تمر بها القوافل .

والديانة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية ـ وخاصة في أواسطها ـ هي الوثنية . . ولهذا فإن الشاعر الفِنْد ـ كما يترجح لدينا ـ ينتظمه ما ينتظم غيره من سكان هذه البلاد . . هذا إذا لم يقم دليل جازم على صحة ما ذهب إليه الأب اليسوعي .

ومن ناحية أخرى، فليس فيما وصل إلى أيدينا من شعر الشاعر أي مظهر من مظاهـر المسيحية التي رأيناها متجلية، بعض التجلي، في شعر شعراء العرب النصارى من سكان شمالي الجزيرة أو شرقها أو جنوبها الغربي .

---

(١) الجزء الأول ص٣٤١ طبعة بيروت .

(٢) وهذا لا ينفي ما رواه بعض المؤرخين أن وفد اليمامة لما قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم من بني سحيم الحنفيين، سألوه عن كنيستهم، فأعطاهم ماء وأمرهم بإراقته فيها .
ويوجد بقرب قُرّان ـ القرينة اليوم ـ بين حُريملاء وملهم، بناء يدعى «الكُنَيِّسة» ـ بالتصغير ـ فهل يعني ذلك وجود كنيسة قديمة للنصارى هناك؟ .

شعره:

يعتبر الفِنْد الزِّمَّاني ـ كما قال صاحب كتاب «جمهرة أنساب العرب» من شعراء الطبقة الثالثة.

وشعره كله وضوح وجلاء، فهو سهل التركيب، خالٍ من الألفاظ الحوشية، ومن الكلمات الغريبة، سلس العبارة، بعيد عن التعقيد، وهذا علاوة على خفة الجرس، ورقة النغم، وانسياب الموسيقى.

وهو ـ الشاعر ـ ميال في شعره إلى الأوزان الخفيفة والبحور القصيرة، وهو مقل في شعره، وأكثر ما قال من الشعر كان في الفخر والحماسة ووصف حومات الوغى.. ويتضمن شعره الكثير من المعاني الإنسانية السامية والكثير من تجارب الحياة، وفيه الكثير من الأمثال الحية السائرة التي تقع من النفس أجمل موقع.

وسنأتي هنا على ذكر بعض نماذج من شعره، لندرك من خلالها أهم سمات شاعريته، وأبرز المعالم في تاريخ حياته.

من عيون شعره:

من أشهر قصائده الشائعة قصيدته النونية التي قالها في حرب البسوس، وهي[1]:

صَفَحْنا عَنْ (بني ذُهْلٍ) وقُلْنَا: القَوْمُ إخوانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يَرْجِعْـ ـنَ قوماً كالذي كانوا
فلما صرّحَ الشَّرُّ وأمسى وهو عُريانُ

(١) الأغاني ج٢١ ص١٤٣. وشعراء النصرانية ج١ ص٢٤١. وخزانة الأدب للبغدادي ج٢ ص٥٧.

ولـم يَبْـقَ سوى الـعُـدْوا ... نِ، دنَّـاهـم كمـا دانـوا
شدَدْنـا شَـدَّة الـلَّيْـثِ ... عـدَا، والـلَّيْـثُ غضـبـانُ
بضـربٍ فيـهِ تفـجـيـعٌ ... وتـأييـمٌ وإرنـانُ[1]
وطـعَـنٍ كفَـمِ الـزِّقِّ ... غَـدا، والـزِّقُّ مَـلآنُ
وفـي الـعـدوان للعـدوا ... نِ تَوْهِـينٌ واقـرانُ[2]
ويَـعْضُ الـحِـلْمِ عِنـدَ الجَهْـ ... ـلِ لِلـذِّلـة إذْعـانُ!
وفـي الـشَّـرِّ نجـاةٌ حيـ ... ـن لا يُنْـجـيـك إحـسـانُ

إن هذا الشعر يشرح نفسه للقاريء، فهو سهل واضح طلي، بعيد عن الكلفة والتقعر في الألفاظ والأساليب، وهو خفيف النغمة طري اللحن.. وهذه الطراوة والخفة تكادان توحيان إلى النفس بأن هذا الشعر ليس جاهليًّا بل عباسيًّا.. ومن يدري فقد يكون من صنيع الرواة ووضع القوالين؟!

وعلى كل فإن في هذه القصيدة الكثير من المعاني الخلقية الرفيعة التي تطفح بها طبيعة العربي، وفيها الكثير من الأمثال السائرة على كل شفة ولسان..

ومن قصائده الملحمية، قصيدة حائية قالها في يوم التَّحالق، ذلك اليوم المشهود في أيام العرب، والذي كان الفِنْد أحدَ ألويته العظيمة.. وفي هذه القصيدة يقول:

لقيتْ (تـغـلبٌ) كعُصْبَـةِ (عـادٍ) ... إذ أتـاهُمْ هَوْلُ العـذاب صباحـاً
ونـهينـا عن حرب (تغلب) الشـوُّ ... س، فمـا عافت البـلاء المتَـاحـا
دُون ان أبْصَـرَتْ خيولاً لـ (بكْـرٍ) ... وسـيوفـاً هنـديَّـةً، ورمـاحـا

(١) التأييم: ترك النساء أيامى، والإرنان: البكاء والعويل.
(٢) الإقران: الطاقة للشيء، قال تعالى: ﴿وما كنا له مقرنين﴾ ـ أي مطيقين.

فَقَتَلنا بـ «وارداتٍ» رجالاً إذ بدا كاتِمُ الضَّميرِ، فباحا
ورجت (تَغْلِبٌ) تُعيدُ (كُلَيْبا) فاطحنا سراتهم حيثُ طاحا
قد تركنا نِساءَهُمْ مُعْوِلاتٍ مُعْلِناتٍ مع البكاء النُّواحَا
وتركنا ديارَ (تَغْلِبَ) قفراً وكَسَرنا من الغُواة الجَنَاحَا
بقيت بعده (جَليلةُ) تبكي والخدود العيْطاءُ تدعو لحاحا
وترى (الزِّير) يَمْعَجُ القولَ فينا بعدما صار مفرداً مستباحا

هذا ـ على ما نعتقد ـ وصفٌ صادقٌ لوقعة يوم التحالق ـ من حرب البسوس ـ ولقد كان الشعر الجاهلي مرآة صادقة لحياة الناس في عهده.. والشاعر الجاهلي كان يقول الواقع دون أيِّ غرض.. كان يقول ما له وما عليه.. يحكي انتصاره وهزيمته، وقد رأينا ذلك في القصيدة النونية السالفة الذكر، لذا نجد في هذه القصيدة الأخيرة سجلاً حقاً لهذا اليوم الدامي بين بكر وتغلب، وقصة هذه الحرب المشؤومة مشهورة في كتب الأدب والتاريخ.

والقصيدة من البحر الخفيف، وهذا البحر هو منتهى ما نظم عليه الشاعر مما وقع في أيدينا من شعره، أما البحور الثقيلة ذات التفاعيل المتكررة والطويلة فإن الشاعر لم يطرق لها باباً على حد ما نعلم.

والألفاظ والتعابير في القصيدة سهلة جداً، قريبة المتناول، ليس فيها من الحوشية والصلابة أدنى أثر.. ولا يكاد القاريء يقف أمامها، بل يجد فهمه يسبقه إليها فلا حاجة به إلى التروي أو البحث في لفظ مستعصٍ أو جملة مستغلقة.. وليس يعني هذا أن الشاعر دون المستوى.. بل إن ذلك ـ كما يقول البلاغيون ـ يعني السهل الممتنع تراه أمامك سهلاً واضحاً سائغاً ولكنك تلاقي صعوبة كبيرة في الضرب على وتره أو النسج على منواله..

ونسترسل في إيراد المزيد من شعر الفِنْد، ونضع أمام القاريء بعض

أبيات من قصيدة ثالثة للشاعر قالها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ يصف حالة له مع رجل من تغلب كان الفِند قد رآه في المعركة وخلفه رديف له فطعنه الفِنْد وانتظمه في الطعنة مع الرديف وقال:

أيا طَعْنَةَ ما شيخ كبير يَفنٍ[1] بالِ!
تقيم المأتمَ الأعلى على جهدٍ وإعوالِ
ولولا نَبْلُ عَوْصٍ في حُظبّايَ وأوصالي[2]
لطاعَنْتُ صدور الخيـ ـل طعناً ليس بالآلي
ترى الخيْلَ على آثا رِ مُهري في السنا العالي
ولا تُبْقي صروفُ الدَّهْـ ـرِ إنساناً على حالِ
تفتيتُ[3] بها إذْ كَـ ـرِه الشُّكَّةَ أمثالي

وما قلناه عن النماذج السابقة نقوله أيضاً عن هذه القصيدة من حيث صدق الخبر ومن حيث يسر التعبير وسلامة القول وخفة الروي والقافية مع أن المقام ـ مقام الحرب والطعان ـ يقتضي الفخامة والشدة والعنف. . لكنها طبيعة الشاعر الفِنْد عندما يقول الشعر.

ولخفة هذه الأبيات وامتلائها بالنغم الموسيقيّ، كان المغنون في العصر العباسي ـ وعلى رأسهم عبدالله بن دَحْمان ـ يتغنون بها ويرددونها على العود.

ونختتم هذه النماذج بأبيات جميلة ظريفة نسبها صاحب كتاب «السمط» ـ ص ٥٠٤ ـ لشاعرنا، وقد نسبها صاحب كتاب «أخبار النحويين البصريين» ـ ص ٢٣ ـ إلى امرىء القيس بن عابس الكندي، وهي:

---

(١) اليفن: الشيخ الكبير.
(٢) العوص: الدهر، والحُطبَّى: الجسم.
(٣) تفتيت: تخلقت بأخلاق الفتيان. والشّكة: ما يلبس من السلاح.

يا تَمْــلكُ يا تمــلي	صِلينــي وذري عذلــي!
ذرينــي وســلاحــي ثم	شُدِّي الــكــفَّ بالــغَــزْلِ
ونبلي وفــوقــاهــا كعــرا	قيــب قطا طحــلِ!
ومــنِّــي نظرةٌ بعــدي	ومِــنِّــي نظرةٌ قبــلي
وثــوبــاي جديــدان	وأرضــي شُرُكَ الــنــعــلِ
وإمــا متّ يا تمْــلي	فكــونــي حرة مثــلي

(وهذا الشِّعر مما ا ختاره الأصمعي لخِفَّة رَويِّه)[1].

وبعـد، فلعـل شاعرنا الزماني يذكرنا بشاعر جاهلي آخر، مشابه له في النحو والاتجاه والطريقة. . وهو المُنَخَّل اليشكري. . فكلا الشاعرين يصدران عن نفَسٍ واحد، ويسيران على منوال متقارب، ويمتحان من عيلم مشترك، وإذا كان بعض النقاد المعاصرين قد شكّوا في نسبة بعض قصائد المنخل إليه لسهولتها بالنسبة للغة الجاهلين لأدلة كثيرة أوردوها، فإن هؤلاء قديرون على الإتيان بأكثر من دليل على الشك في نسبة قصائد الفِنْد إليه. . ولكن ما علينا فإن مصادر الأدب الأولى قد أوردت هذه القصائد، ولسنا نُجيزُ لأنفسنا مناقشة هذه الآراء بالتأييد أو الإنكار، فقد يكون لذلك موضع آخر.

(١) ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ص١٠ طبعة القسطنطينية ١٢٨٢هـ.

الأعشـــــى

... ـ ٧هـ

فحل من فحول الشعر الجاهلي ـ بل العربي ـ وعلم من أعلامه المبرزين . . كتب عنه مؤرخو الأدب من عرب ومستشرقين الشيء الكثير، وجعلوا تراثه في الصدارة من مقام الفكر العربي، وأعتقد أنه ـ مع ذلك ـ لا يزال قليل الحظ، مغموط الحق، لاسيما إذا ما قايسنا بينه وبين غيره من فطاحل الشعراء الذين نالوا من العناية والدراسة الأدبية أكثر مما نال.

هذا هو الأعشى.

وسبب تلقيبه بذلك ـ كما يقول الرواة ـ ضعف في عينيه أودى به إلى العمى . . وهذا هو اللقب المعروف به غالباً في دنيا الأدب . . وقد يعرف أحياناً بأعشى قيس وأحياناً بأعشى بكر . . تمييزاً له عن غيره من الشعراء الذين شاركوه في اللقب كأعشى همدان وأعشى باهلة وأعشى تغلب وأعشى طُرود.

ويكنونه «أبا بصير». وأما اسمه فميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد، من قيس بن ثعلبة، من بكر بن وائل ـ وهي قبيلة ربعية ـ فهو ربعي عدناني كما ترى[1].

وُلد (الأعشى) في «منفوحة» وهي قرية يمامية، تطل على العِرْض (وادي حنيفة) العظيم من ضفته الشرقية، وعلى وادي الوتر (المعروف الآن بالبطحاء) من ضفته الغربية، وتقع على مد البصر ـ جنوباً ـ من مدينة (حجر) قاعدة اليمامة وذات الأمجاد التاريخية المأثورة . . والتي قامت على أنقاضها مدينة

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني : ج٨ ص٧٤.

(الرياض) اليوم[1].

ويحدثنا الرواة أن أسرة «الأعشى» كانت بائسة معدمة مغمورة؛ فلم يع التاريخ عن أبيه إلا حادث موته. . تلك الحادثة التي لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب الأدب المعتمدة القديمة. . وتتلخص في أن أباه آوى إلى غار ليحتمي به من وهج القيظ ولفح الشمس، فسقطت على فم الغار صخرة سدته، فبقي قيس بداخله حتى قتله الطوى، فسمي لذلك «قتيل الجوع»[2].

وهم يستنبطون ذلك من بيت يضيفونه إلى خصم للأعشى، ظل يهاجيه، اسمه عمرو بن قطن ـ من قيس أيضاً. . وهذا البيت هو:

أبـوك قتيل الجـوع «قيس بن جنـدل»
وخـالـك عبـد من «خمـاعـة» راضـع!

وقد شب أبو بصير راوية لخاله «المسيب بن علس» ـ وكان شاعراً مقلاً مجيداً ـ وتأثر به إلى حد كبير في أدبه وفنه وشعره. . وإن لم يسر على منهاجه في الفضل والاستقامة.

وإذا كانت أسرة الأعشى لم تورثه مجادة يسمو بها ولم تكسبه مفخرة يشمخ بها، فقد كان لقومه تاريخ مشهور وأيام مأثورة كُللت بذلك اليوم الأغر الخالد، الذي انتصفت فيه العرب من الأعاجم. . يوم ذي قار المجيد.

لقد كان له في هذا النسب العزاء والسلوى من ضعة الأسرة وهوانها.

* * *

(١) ومنفوحة اليوم قد تداخلت مع مدينة الرياض، كما تداخلت معها مدينة الدرعية وبلدة عرقة، واتسع النطاق العمراني من كافة الجوانب، حيث قامت مدينة (الرياض الكبرى).

(٢) الأغاني: ج٨ ص٧٤، شعراء النصرانية للويس شيخو: ج٣ ص٣٥٧، الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٤٤.

وفوق ذلك؛ فإن قيساً، مشهورة بوفرة الشعراء، فقد بلغ نصيبها منهم في وقت ما ثلاثين شاعراً من بين خمسة وعشرين ومائة شاعر توزع باقيها في سائر الجزيرة العربية على كثرة قبائلها.

وذلك ـ ولا ريب ـ حظ أدبي ضخم جداً خاصة في مجتمع يحفل بالشعر ويقيم للشاعر ألف وزن ووزن.

أما كيف بدأ الأعشى معالجة القريض ونظم الشعر.. فذلك خاضع للقاعدة المطردة بين شعراء العربية.. فقد بدأ محاولاته صغيراً.. ولم يمض به موكب الزمن حتى خاض لُجيَّه، وغاص إلى قاموسه العميق.

بل لم يطل به هذا الزمن حتى ذل له أبيُّه وانقاد عصيه، وحتى نبغ في سائر فنون الشعر وشتى أغراضه.. فصار لحنه ملء سمع الحياة من حوله، بل جاوزت شهرته فيه الحدود وطبقت الآفاق.

والرواة يحدثوننا أن (الأعشى) أول شاعر تكسَّبَ بشعره[1] وعرضه في المزاد الأدبي العلني وجعله أداة لكسب المال:

وما زلتُ أبغي المالَ مُذْ أنا يافع
وليداً وكهلاً حين شبتُ وأمردا

أما كونه صاحب السبق في ذلك فهو ما لا شأن لنا به ـ وإن كان في هذا الخبر شيء من المبالغة المكشوفة ـ وأما انه فعله؛ فالمرجع أن ذلك أثر من حياة الحرمان التي أحاطت به في ريعان عمره، فتحكمت في تكوين إنسانيته وتوجيه خلقه، فتاق إلى المال في شره، وتطلع إلى الجاه في شغف، فلم يجد سبيلاً لذلك سوى الشعر، فعرضه في السوق السوداء، يمدح هذا ويستجدي

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص٣٢٥، طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ص٢٩، العمدة لابن رشيق ص٦٤.

ذاك؛ فإن لم يفد ذلك أو هذا قلب المدح هجاء مراً وشتماً مقذعاً . . فتراه اليوم يهجو من مدح بالأمس . . وربما عاد إلى مدحه غداً إذا وجد في المديح طريقاً أخضر.

وقد وهبه الله صوتاً عذباً شجياً ذا ترجيع وتنغيم، حتى أنه إذا أنشد يخيل إلى سامعيه أن آخر ينشد معه، وهذا هو السر في تسميتهم إياه بـ «صناجة العرب»[1].

والناس، لهذا ولذاك، يخافون شعره ويرهبون سلاطة لسانه، وهم أيضاً مغرمون بحفظ قصائده وكلفون بروايتها.

وكان للأعشى ما أراد.

فبدأ سيل المال يتدفق على رحابه، وصار الرؤساء والإشراف يتنافسون في التملق له وبـذل المال والهدايا أمام ناظريه وتحت قدميه؛ حتى امتلأ وِطابه وفهق إناؤه.

ويحدثنا الرواة أيضاً أن «أبا بصير» قد صرف التيار الجارف من المال في سبيل اللهـو واللذة والشراب. . فهو مسرف في شهواته ونزواته، مدمن على احتساء الخمر ولعب القمار، غارق إلى لحيته في الفحش والخناء. . فليس للفضيلة في مقياسه أي اعتبار. . ولا هو مكترث بخلق أو عابىء بإنسانية.

وإذا قرأت (ديوانـه) ـ وهـو رصيد شعري ضخم ـ وجدته زاخراً بوصف الخمـر ووصف مجالس الشرب والندامى وملاعب العبث والمقامرين ورأيته كثيراً ما يحلو له التحدث عن المال.

---

(١) الصناجة هو صاحب الشعر المبدع والنغم المطرب، والصوت الجميل. وقد كان الأعشى بارعاً في شعره مِفناً في إلقائه، طرِباً في صوته حتى ليخيل لسامعه أنه ينشده على عزف أدوات الموسيقى.

ولم يشأ لداته وأخدانه ـ حتى بعد موته ـ أن يحرموه شهوة الكأس ومداعبات مجالس اللهو. . فقد روي أن أحد ولاة اليمامة سأل عن دار الأعشى فدلوه عليها. . وسأل عن قبره فأخبر أنها بفناء الدار، فقصد إليها ورأى الجدث عن كثب، فإذا هو رطب. . فسأل عن ذلك، فقيل له: إن بعض الفتيان يجتمعون حول هذا القبر، فيشربون ويعتبرون الأعشى واحداً، فإذا حانت نوبته صبوا على قبره نصيبه من الصهباء.

وللمرأة، النصيب الأوفر من ديوانه، فهي عقله وعاطفته. . وهو في شعره يحدثك عن هريرة، وقتلة، وجبيرة، وغيرهن، ويفخر بوصالهن ونيلهن وأنه قد أقر عينيه من ذلك.

فهو يقول في صراحة:

وأقررت عيني من الغانيا ت إما نكاحاً وإما زنا!!

ويقول:

وقد أخالس ربَّ البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يئل!
وقد أقود الصبا يوماً فيتبعني وقد يصاحبني ذو الشرة الغزل!

وهكذا، فإنه لا يفرق بين حلال وحرام في اللذة، فهي عنده مبذولة لمن يستطيع أن ينالها.

وقد أكثر من الرحلات والتطواف بأنحاء الجزيرة العربية. . بل جاوزها إلى غيرها من الأقطار المجاورة كالحبشة وفارس، فاتصل بالسيد والعاقب في نجران، وبسلامة ذي فائش في اليمن، وبالمناذرة في الحيرة، وبآل جفنة في الشام. وكان غرضه الأول من هذه الجولات جمع المال وكسبه، ولم يترك لذلك ـ على ما يقال ـ ملكاً أو زعيماً أو سيداً إلا رحل إليه. . ولا تنسَ أنه القائل:

قد جبت ما بين (بانقيا)[1] إلى (عدن)
وطال في العُجم ترحالي وتسياري

والقائل:

وطوَّفت للمال آفاقه عمان، فحمص، فأوريشلم

وهو ـ دائماً ـ يردد نغمة المال وولعه باقتناصه:

وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع
ولیداً وكهلاً حين شبت وأمرداً!!

ويحلو له عند ذكر محبوبته ذكر الأطلال والربوع..

انظر قوله على سبيل المثال:

شاقتك من «قتلة» أطلالها بالشط، فالوُتر، إلى حاجر
فركن مهراس إلى مارد فقاع منفوحة، فالحائر

فهذه أسماء أودية وقرى معروفة في اليمامة[2].

---

(١) بانقيا: موضع بالعراق حول النجف.

(٢) الشط: قرية تجاور حجراً وتقع على شفير وادي الوتر من الغرب، وفيها الحصن الشهير (معتق).
الوتر: وادٍ باليمامة يحف حجراً من ناحيتها الشرقية. وقد عُرف في العهود المتأخرة باسم (البطحاء).
وهو يسيل من حزون المغرزات متجهاً صوب الجنوب حتى يلتقي بوادي العرض (وادي حنيفة) بعد منفوحة بقليل وقد دخل هذا الوادي، كما دخلت روافده وفروعه، ضمن مدينة الرياض اليوم وأصبح قسمه الجنوبي شارعاً رئيسيًّا في المدينة.
حاجر: الحاجر هو الحاجز الذي يُحِدُّ من انحدار مياه السيول ليصرف جزءاً منها إلى المزارع والنخيل ـ ويسمى العِراص أو الرشاء في عرف أهل هذه البلاد ـ وقد كان هناك حاجز مقام من الأحجار يصرف جزءاً من الماء إلى نخيل منفوحة. وبعد اتساع النطاق العمراني لمدينة الرياض وشموله ما حولها من المدن والقرى القريبة أصبحت منفوحة حياً من أحياء الرياض الكبرى وقد اختفت نخيلها ومزارعها واختفى معها حاجر.
مهراس: موضع كان يسكن به الأعشى.
مارد: حصن قرب منفوحة. وهو الذي قيل فيه: (تمرّد مارد وعز الأبلق).
الحائر: هي اليوم بلدة قائمة معروفة بهذا الاسم، وعندها يلتقي وادي حنيفة بوادي بعيجاء ووادي لحاء وتقع على بعد أربعين كيلاً تقريباً عن الرياض جنوباً.

وقـد أفاض عليه أولئك الزعماء والملوك بالجزيل من العطايا، من إبل وجياد وقيان ولباس وذهب وفضة، مما أتاح له أن يعيش حياة مترفة مفعمة باللهو والتبذير.

ولكثرة تنقلاته وتردده على نصارى نجران والحيرة، ظهرت في ثنايا شعره ملامـح وصـور من معتقـداتهم ـ الأمـر الذي جعل بعض الرواة يقولون بأنه نصـراني[1]، ولكن الـذي يجـزم به البحـاثة الدقيق هو أنه قد تأثر في شعره بالنصرانية فقط، لا انه اعتقدها كدين يؤمن بطقوسه.. بل إنه لم يكن يحفل بأي دين أو يتمسك بأية عقيدة أو يقف عند أي حد تشريعي.. وإنما كان ماديًّا تخذ العطايا والشهوات ديدناً وعقيدة.

ومما استدل به القائلون بنصرانيته قوله يخاطب ناقته:

وكـعـبـة نجـران حتـم عليـ ـك حتـى تنـاخي بأبـوابـهـا
نزور (يزيد) و (عـبـد الـمسيـ ـح) و(قيسـاً) همـو خير أربـابهـا
إذا الـحَـبَـراتُ تَلوَّثْ بهـمْ وجـرُّوا أسـافـلَ هُدَّابـهـا
وشـاهَـدَنـا الـجـلُّ والياسمـو ن والـمسْـمِعـاتُ بقَصَّـابهـا
وبَـرْبَـطُنا مُعْـمَـلٌ دائـم فـأي الـثـلاثـة أزرى بهـا

ومع هذا، فقد جاء في شعره أنماط من ديانات متنوعة.. لا تنبيء عن عقيدة أو إيمان، وليس من الممكن نسبة أصلها لدين معين، ومن المحتمل أن يكون بعضها من بقايا دين الحنيفية ـ وهي دين سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ.

إنه يقول:

وعـلمـت أن النفس تلقى حتفهـا ما كان خالقهـا الإلـه قضى لهـا

فما رأيك؟!

---

(١) ومنهم صاحب (شعراء النصرانية).

وكان تطوافه سبباً في كثرة معارفه وسعة ثقافته ووفرة إطلاعه، كما كان سبباً في كثرة ورود الألفاظ الأعجمية في شعره وصيرورتها من سماته الظاهرة.

وكان يوافي سوق «عكاظ» وينشد فيه أشعاره، فكان هذا سبباً من أسباب كثيرة في ذيوع صيته وشيوع شعره، وولع الكثير بإنشاده والغناء به.

والنـاس ـ بل النقاد ـ يعجبون بشاعريته إلى أقصى حد، ويقدرون فنه ومـوهبته، ولهم فيه آراء عالية تكاد تجمع على تقديمه على شعراء الجاهلية وتصديره لإمارة شعر هذا العصر[1]. . ولا غرو في هذا، فهو شاعر غزير المادة، رقيق الحاشية، مبدع التصوير، يتسم بالأصالة الفنية والقوة الفكرية، ويسمو بجزالته على كثير من فحول الشعر.

* * *

ويذكر صاحب (الأغاني)[2] أن الأعشى ـ لما ظهر الإسلام وسمع بالرسول الكريم راق له أن يعد قصيدة يمدح بها (محمداً) عليه السلام، ففعل، وعزم على الوفادة على المدينة واعتناق الإسلام.

فما كاد خبره يطرق مسامع قريش، حتى نهض فيها أبو سفيان، وقال: هذا صناجة العرب! ما مدح أحداً قط إلا رفع قدره.

فرصدوه في الطريق، وقالوا له:

ـ أين أردت يا أبا بصير. . ؟

ـ أردت صاحبكم محمداً لأسلم. .

ـ إنه ينهى عن الزناء؟! . .

---

(١) عدّه ابن سلام الجمحي في (طبقات الشعراء) ـ ص ٢٥ ـ من شعراء الطبقة الجاهلية الأولى، وزاد بأن علماء الكوفة كانوا يقدمون الأعشى على غيره.

(٢) ج٨ ص٨٢.

ـ مالي وللزناء . . لقد تركني وتركته!

ـ وينهى عن القمار . .

ـ لعلي ـ إن لقيته ـ أن أصيب منه عوضاً من القمار!!

ـ وينهى عن الربا . .

ـ ما دنتُ ولا أدنتُ . .

ـ وينهى عن الخمر . .

ـ أوه!! ارجع إلى صبابة في المهراس، فأحتسيها! ثم أعود فأسلم .

قال له أبو سفيان :

ـ هل لك في خير مما هممتَ به؟!

ـ وما هو؟ .

ـ نحن الآن في هدنة . . فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى «اليمامة» سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيته .

ـ ما أكره ذلك .

قال أبو سفيان يخاطب قومه .

ـ هذا الأعشى! . . والله لئن أتى محمداً واتبعه، ليضرمنّ عليكم نيران العرب بشعره، وليمنعن عنكم غلال اليمامة . . فاجمعوا له مائة من الإبل .

ففعلوا . فأخذها وعاد إلى وطنه . . فلما قارب مسقط رأسه «منفوحة» سقط من على راحلته، فدُقَّتْ عنقه ومات .

وذلك في سنة سبع من الهجرة . وقد دفن هنالك في فناء داره، ولا يزال قبره معروفاً بها حتى اليوم .

تلك هي حياة «صناجة العرب» . . فتح عينيه على الفاقة والضعة؛ فاستعاض عن ذلك بقوة الشاعرية وغنى الفكر . . واتخذ من هذا سُلماً إلى

غاياته، حتى هابته الناس، وخطبت وده الملوك ورؤساء القبائل، وصار علماً في رأسه نار في دنيا الجاهلية الأخيرة.. وإنَّ في قصته مع «قريش» لأكبر الدليل.

دراسة تحليلية موجزة لشعره:

لا بد لنا ـ ونحن في مستهل البحث ـ أن نلم قدر المستطاع بشيء من شعر الأعشى وأقوال الرواة فيه، لنحلل على ضوء ذلك شيئاً من هذا الشعر.

للأعشى ديوان شعر ضخم، وقد تكرر طبعه مراراً في بلاد مختلفة، وقد عني به كثير من الأدباء ورجال البحث من عرب ومستشرقين[1].

وكثير من علماء الأدب يفضله على غيره من الشعراء، محتجاً لذلك بأنه أكثرهم طويلة ونفساً وبأنه أبرعهم تصرفاً في فنون الشعر المختلفة من مدح وهجاء وغزل وحنين.. إلخ.

وقال بعضهم: إنه أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر وأغزرهم في المادة الشعرية.

وقال الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ـ وهو ذلك الناقد الأدبي الدقيق والذواقة الحصيف للشعر ـ لمؤدب ولده: أدبه برواية شعر الأعشى؛ فإن لكلامه عذوبة.. قاتله الله!.. ما كان أعذبَ بحره.. وأصلب صخره!.. فمن زعم أن أحداً من الشعراء أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر.

وروي عن (الشعبي)[2] أنه قال: الأعشى أغزل الناس في بيت، وأخنثهم

---

(١) نشر المستشرق الألماني رودولف جاير ديوان الأعشى لأول مرة عام ١٩٢٨م، وقد بذل في جمعه وتحقيقه وتخريج نصوصه وشرح غريبه جهداً صعباً، فكان عمله هذا مثالاً للصبر والجلد والدقة العلمية المتناهية، ثم توالى بعد ذلك نشر الديوان في طبعات أخرى.

(٢) الأغاني: ج٨ ص٧٦.

في بيت، وأشجعهم في بيت. . فأما بيت الغزل؛ فقوله:

غراء، فرعـاء، مصـقـول عوارضـهـا
تمشي الهـوينـا؛ كمـا يمشي الـوجي الـوحـل

وأما أشجع بيت؛ فقوله:

قالـوا: الـطراد. . فقـلنـا: تلك عادتـنـا
أو تنـزلـون؛ فإنـا معـشـر نـزل

وأما أخنث بيت؛ فقوله:

قالـت (هـريرة) ـ لمـا جئـت زائـرهـا ـ
ويلي عليك وويلي منـك يا رجـل!

والأعشى واحد من أربعة يكاد يُجمع مؤرخو الأدب وعلماؤه على تقديمهم على من سواهم، وهم: امرؤ القيس إذا ركب. . والنابغة إذا رهب. . وزهير إذا رغب. . والأعشى إذا طرب.

والحق أن الأعشى في ساعة طربه، ينساب الشعر على أَسَلات لسانه في وفرة وإبداع.

وإنك لمبصر في شعره ـ وأنت تتلوه ـ رصانة أسلوب وطلاوة عبارة ورونق حسن وبراعة وصف، وإجادةً مع طول نفس. . وذلك ولا ريب محك لا ينجح فيه إلا من أوتي حظاً عظيماً من صفاء الذوق وصدق الحس وقوة الإدراك.

والأعشى معدود من أصحاب المعلقات العشر. . والرواة مختلفون في معلقته، فمنهم من يرى أنها:

ما بكـاء الـكـبير بالأطـلال وسـؤالـي ومـا ترد سؤالـي!

والبعض الآخر يقول: إنها اللامية التي مطلعها:

ودع «هـريرة» إن الـركـب مرتـحـل
وهـل تطيق وداعـاً أيهـا الـرجـل؟

وهو المختار. . وقد بدأها بالغزل في هريرة ـ وهي قَيْنَة يقال إنها لبشر بن عمرو بن مرثد ـ وكانت تغنيه هي وأختها «خليدة». وكان بشر هذا من أهل الحيرة في جنوب العراق، نقم عليه الملك النعمان ففر هارباً نحو اليمامة وكان أبو بصير يحضر في مجلس بشر ويستمع غناء هريرة، فهام بها ولكنها كانت وَلِهَةً برجل آخر منصرف عنها إلى غيرها وانصرفت هي عن الأعشى وأنكرته، وهذا هو معنى قوله في أثناء المعلقة:

عُلِّقْتُهـا عَرَضـاً وعُلِّقَتْ رجـلاً غيري، وعُلِّق أخرى ذلك الرجل!

وغزله ـ على الإجمال ـ من أبدع روائع الجمال الفني. . وهو بحق قد ضرب على الوتر الحساس في نفسه، حين صرح بنفثات فؤاده وغرد بلباب شعوره:

ودِّع «هـريرة» إن الـركـب مرتـحـل
وهـل تطيق وداعـاً أيهـا الـرجـل؟
غراء، فرعـاء، مصـقـول عوارضـهـا
تمشي الهـوينـا؛ كمـا يمشي الـوجي الوحل[1]
كأن مشـيتـهـا من بيت جارتـهـا
مَرُّ الـسـحـابـة. . لا ريث ولا عجـل
تسـمـع للحـلي وسـواسـاً إذا انـصـرف
كمـا اسـتـعـان بريح عشـرق زجـل
ليسـت كمـن يكـره الـجـيران مشـيتـهـا
ولا تراهـا لسـر الـجـار تخـتـتـل
يكـاد يصـرعـهـا ـ لـولا تشـددهـا ـ
إذا تقـوم إلـى جاراتـهـا الـكـسـل

(١) الوجي: الذي يشكو حافره فيكون متثاقلاً في مشيته، ولاسيما إذا صادف وحلاً في طريقه.

وبعد هذا الغزل الرقيق.. وبعد أن يشكو تباريح الصبابة.. ينتقل إلى وصف الخمر والكأس، ومجالس الشرب والندامى، وآلات الطرب واللهو:

وقد غدوت إلى «الحانوت» يتبعني
شاو، مشل، شلول، شلشل، شول[1]
وقد أقود الصبا يوماً فيتبعني
وقد يصاحبني ذو الشِّرَّة الغَزِل[2]
في (فتيةٍ) كسيوف الهند قد علموا
أن هالك كل من يحفى وينتعل!
نازعتهم قضب الريحان متكئاً
وقهوة مزة راووقها خضل
لا يستفيقون منها، وهي راهنة
إلا بهات.. وإن علّوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات لها نطف
مقلص أسفل السربال معتمل
ومستجيب تخال الصنج يسمعه
إذا تراجع فيه القينة الفضل

وبعد أن يروي غليله من ذلك.. ينتقل إلى وصف رحيله وراحلته، ومنها إلى وصف الظواهر الطبيعية من سحاب ورعد وبرق.. وفي آخر القصيدة يتجه ـ مع شيطانه! ـ إلى هجاء (يزيد بن مسهر الشيباني):

أبلغ (يزيد) بني شيبان مألكة
أبا ثبيت أما تنفك تأتكل[3]

(١) الشاوي: الذي يشوي اللحم، والمشل والشلول والشلشل والشول: بمعنى واحد وهو الفتى الخفيف الروح، النشيط الحركة، المؤنس في المجالسة.

(٢) أقود الصبا: أتصابى وآتي بأفعال الفتيان ويصحبني منهم الغزِل ذي الشِرَّة وهي نشاط الشباب.

(٣) مألكة: رسالة، تأتكل: تسعى بالشر والفساد.

ألــسـتَ منــتـهيـاً عن نحـت أثـلتنــا
ولــسـت ضـائـرهــا ما أطّـت الإبــل؟[1]
كـنــاطــحٍ صـخــرةً يومــاً ليوهــنـهــا
فلم يضــرهــا، وأوهــى قرنَــه الــوعــل

ويسير في هذه النغمة.. ومنها إلى التغني بمفاخر قومه وبلائهم في الحروب:

سـائــل «بني أســد» عنــا، فقـد علمـوا
أن سوف يأتـيك من أنـبــائـنــا شَكَــل
واســأل «قـشـيراً» و «عبــدالله» كلهمــو
واســأل «ربيعـــة» عنــا كيف نفـتعــل
إنــا نقــاتــلهــم حتــى نقــتــلهم
عنــد الــلقــاء، وإن جاروا وإن جهـلوا

إنها قصيدة رائعة خالدة.. جمعت فأوعت.. فكانت جديرة بالإكبار وقمينة بالتحميص.. ولقد طبعت مرات متعددة في كتاب (الدر المختار) الذي جمعه الأستاذ العلامة (سلو ستر دي ساسي) وطبعه في مدينة باريس.

أما القصيدة الرائعة الأخرى التي جزم بعض الرواة بأنها هي المعلقة.. فقد بدأها هي الأخرى بالغزل.. ومن الغزل ساح في دنيا الوصف.. ومن هذه انتقل إلى مدح «الأسود بن المنذر» أحد ولاة النعمان، وذلك هو «بيت القصيد» في القصيدة.. كما يقولون.. ولا أدري هل خلق الشاعر في القديم ليكون مداحاً يزكم الأنوف بأماديحه الكاذبة، ويؤذي المسامع بملقه المكشوف..؟ على أن المديح يحلو ويسمو إذا أنيط بمن هم له كفء.

---

(١) نحت أثلتنا: يقصد مجده المؤثل، أطّتْ: أنّتْ تعباً وحنيناً.

وتتلخص «الحكاية» في أن جماعة من «تيم الرباب» كانوا في أسر الأسود ـ أميرهم ـ وكانت أمه من تيم . . فلجأ هؤلاء إلى الأعشى، واستشفعوا به لدى الأسود . . فقبل الشفاعة وأطلق سراح المعتقلين . . فقال أبو بصير قصيدته هذه مادحاً وشاكراً للأسود الذي قبل شفاعته . . وكان مما قاله في ممدوحه ـ والخطاب لناقته ـ .

لا تشكّيْ إليَّ وانتجعي الأسـ ـود أهل الندى وأهل الفعال
فرع نبع يهتز في غصن المجـ ـد غزير الندى شديد المحال
عنده البر والتقى وأسى الصبـ ـر وحمل للمعضلات الثقال
وصلات الأرحام قد علم النا س وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس الكريمة للذكـ ـر إذا ما التقت صدور العوالي

إلى أن قال:

إن يعاقبْ يكن غراماً وإن يعـ ـطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

ويُطنب في مديحه هذا، حتى إذا قضى وطَره، عاد ثانيةً إلى الغزل، ثم إلى وصف الصيد . . وبذلك ختم قصيدته:

وظللنا ما بين شاو وذي قد ر وساق ومسمع محفال
في شباب يسقون من ماء كرم عاقدين (البرود) فوق العوالي
ذاك عيش شهدته . . ثم ولّى كل عيش مصيره للزوال!!

لعمري . . لقد كان الأسود المنذري يترقب مثل هذه القصيدة العصماء عندما قبل شفاعة الأعشى .

على أن للأعشى قصيدة قالها يمدح بها (قيس بن معدي كرب الكندي) لا تقل في قيمتها الأدبية عن هذه أو تلك . ومطلع هذه القصيدة:

رحلتْ (سُمَيَّة) غدوةً أحمالها غضبى عليك فما تقول بدا لها

وجاء فيها:

ما (النيل) أصبح زاخراً في مدِّه جادت له ريح الصبَّا فجرى لها
يوماً بأجود نائلاً منه إذا نفس البخيل تجهمت سُؤّالها
الواهب المائة الهجان وعبدها عُوذاً تزجى بينها أطفالها[1]

وإذا كان الأعشى قد أطرى ملوك الحيرة والشام وأسياد نجران واليمن ورؤوس كندة وطيء، فأجزلوا له المكافأة؛ فإن الأقربين من سادة اليمامة ـ وطن الشاعر ـ ومن زعماء مَعَد، هم أولى بمعروف المديح، كما أنه أولى بمعروف المال يمنحونه اياه فيجزلون.

لقد سمع الأعشى بجود هوذة بن علي الحنفي، سيد بني حنيفة بل سيد اليمامة، فقصد إليه، وأدلى بدلوه مع الدلاء مادحاً وماتحاً.

ألبس الأعشى هوذة بن علي قلائد الجمان من الشعر، فاستجابت أريحية هوذة، ولم يضن على الشاعر بما كان يؤمله:

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتي أرجي نوالاً فاضلاً من عطائكا
تجانَفُ عن جُل اليمامة ناقتي وما قصدتْ من أهلها لسوائكا
ألمت بأقوام فعافت حياضَهم قَلُوصي وكان الشَّرب منها بمائكا
فلما أتت آطامَ (جوٍ) وأهله أنيخت وألقت رحلها بفنائكا[2]
ولم يسع في الأقوام سعيك واحدٌ وليس إناء للندى كإنائكا
سمعت برحب الباع والجود والندى فأدليتُ دلوي فاستقتْ برشائكا
فتى يحمل الأعباء لو كان غيره من الناس لم ينهض بها متماسكا
وأنت الذي عودتني أن تريشني وأنت الذي آويتني في خلالكا
فإنك فيما بيننا فيَّ مُوزَعٌ بخير وإني مولع بثنائكا

(١) العُوذ: الحديثة النتاج.
(٢) الآطام: الحصون. جو: بلاد اليمامة.

إلى أن يقول:

وجـدتَ انـهـدامَ ثلمـةٍ فبنيتَهـا فأنـعـمـتَ إذ ألحقتَهـا ببنـائكـا
وربـيتَ أيتـامـاً وألـحـقتَ صبيةً وأدركت جهـد السعي قبـل عنائكا
ولم يسـع في العلياء سعيَك ماجدٌ ولا ذو إنىً في الحي مثـلَ قِرائكا[1]

أجـل.. لقـد كان هوذة زعيمـاً وكبيراً في قومـه[2] ولكن الأعشى - وهو المسترزق بشعره - لم يكن ليقول ما قال لولا ندى الممدوح وهبته.

وكم رفع الأعشى بشعره من وضيع.. فانتشله من وهدة الخمول إلى ذؤابة الشرف، وحط من شريف فأنزله من عرش السؤدد إلى مرابض الهوان. وإن في قصة «المُحَلِّق» لأنصع برهان على هذا.

ذكروا أن «المحلق» هذا كان فقيراً وضيعاً، وله من البنات سبع جميعهن عوانس، فأقبلت امرأته عليه ذات يوم لتقول: هذا الأعشى نزل بمائنا وهو لم يمدح قوماً إلا رفعهم فابعث إليه بهدية عله بها يرفعك.. فنفذ المحلق نصيحة الزوجة، وبعث بذلك إلى الأعشى. فقال لرسول المحلق: أقره السلام وقل له وصلتـك رحم وسيأتيك ثنـاؤهـا. فلما شرب الأعشى وانتشى أنشد قصيدته الخالدة في فم الزمان:

أرقت، ومـا هذا السهـاد المؤرِّق ومـا بيَ من سُقم ومـا بي تعشق!

فطار صوت هذه القصيدة في أجواء الجزيرة العربية، وصارت على لسان كل أحـد، ولم يدر الحـول حتى كانت بنـات المحلق السبـع جميعهن قد تزوجن، كل واحدة على مائة من الهجان النجيبات.. فأيسر وشرف.

---

(١) إنىً: إناء (حذفت الهمزة للتخفيف ونُوِّن).

(٢) عاش هوذة حتى أدرك الإسلام، وهو أحد الذين أرسل لهم النبي ﷺ الرسل حين دعا ملوك العرب وفارس ومصر للإسلام، لكن هوذة لم يسلم، لأنه اشترط لإسلامه أن يجعل النبي له الأمر من بعده. وكان ذلك أيضاً شأن مسيلمة بن حبيب.

أما الهجاء؛ فقد بلغ فيه شاعرنا القمة، وقد هجا علقمة بن علاثة ـ وهو من السادة الأشراف ـ فأوجعه وأقض مضجعه وشهر به بين الناس، لمفاخرة بين هذا وبين عامر بن الطفيل، فاستنجد عامر بالأعشى، فأنجده وحقر علقمة وفضل عليه عامراً..

ولكن رصد علقمة ظفروا به، فأحضروه مكبلاً أمام سيدهم.. فلم يجد ثمة من شفيع سوى الشعر.. فقال:

أعلقمُ! قد صيَّرتني الأمو ... رُ إليك وما أنت لي منقصُ
فهب ليَ نفسي فدتك النفو ... س ولا زلتَ تنمو ولا تنقص

فَهَمَّ علقمة بقتله.. ولكنه بعد أن استشار أمه، أمرته أن يكسوه ويحمله ويسيره إلى بلاده، ففعل.. فقال الأعشى:

علقمُ! يا خير بني عامر ... للضيف والصاحب والزائر
والضاحك السن على همه ... والغافر العشرة للعاثر

فمحا اليوم ما قاله بالأمس! ونقض بهذه القصيدة قصيدة أخرى من بحرها ورويها.. قالها يهجو علقمة ويفضل عليه ابن الطفيل، وجاء فيها بعد وصف طويل لمحبوبته «قتلة»:

لو أسندت ميتاً إلى صدرها ... عاش ولم يُنْقل إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا: ... يا عجباً للميت الناشر
دعها، فقد أعذرت في حبها ... واذكر خنا علقمة الفاجر..
علقمُ! ما أنتَ إلى عامر ... الناقض الأوتار والواتر..

على أن مِدْحَتَهُ للرسول الكريم ﷺ وإن اعتبرها بعضهم معلقة تفتقر إلى حرارة الشعر وإلى روح الشاعرية.. وقد عدّها الدكتور طه حسين ـ أقرب إلى نظم المتون منها إلى الشعر. ولعل في تحرز الشاعر من قواعد الدين ومن

تشـريعـاتـه، الجـديدة عليه وعلى مجتمـع عصره، أمراً أصبح الشاعر معه مضطرب الحس، قلق الفكر عند ميلاد هذه القصيدة، خاصة وأنه مازال متردداً بين اليقين والشك وحائراً بين الحق والباطل، فكانت حالته النفسية ـ وهو ينظم القصيدة ـ ضنينة عليه بالإنطلاق ليسبح في جو الشعر. .

وفوق هذا؛ فالنقاد يحصون عليه عدة أخطاء وعيوب فنية وقع فيها مثل «زعموا» ـ وهي مطية الكذب كما يقولون ـ في قوله يمدح قيس بن معدي كرب:

ونـبـئـت قيسـاً ـ ولـم أَبْـلُهُ ـ وقـد «زعـمـوا» ساد أهـل اليمن

على أن جملة «ولم أَبْلُه» لا تليق أيضاً بهذا المقام.

وكقوله «غادها» في هذا البيت:

أتـانـي يؤامـرنـي في الـشـمـو ل ليلاً، فقـلت له غادِهـا

وكان الأجدر بمثله أن يقول: هاتها.

وكتهافت المعاني وثقل الألفاظ في هذا البيت.

وأنكـرتني ـ ومـا كان الـذي نكرت من الحـوادث إلا الشيب والصلعـا

فأيُّ نكرة تكون أنكر من هذا عندها؟

ويعيبون عليه المبالغة الفاحشة في قوله:

لو أسـنـدتْ مَيْتـاً إلـى صدرهـا عاش. . ولـم ينـقـل إلـى قابـر

ولاشك أن مثل هذا لا يغض من شأنه، ولا يحط من مكانته ولا ينال من شاعريته. . بل هو هو في فنه وأدبه وسمو شاعريته. .

وبعد:

فالأعشى مدرسة أدبية خلقية، تخرج فيها كثير من الشعراء كالأخطل وأبي نواس ومن على شاكلتهما. . ولاسيما في وصف الشرب؛ فقد كان في ذلك الأستاذَ الأول والواصف المجيد. . اعترف له بذلك أنداده من فحول الشعراء

وعمالقة القريض والمبرزون في النقد والدراسة الأدبية.

ولمحة خاطفة كهذه، لا توفي شاعراً عظيماً كالأعشى حقه من الدرس والتمحيص والنقاش.. ولكنها ـ وهذا أضعف الإيمان ـ تُلقي ضوءاً على حياته وعقيدته في الكون والناس والشعر، وتجعل القارىء على بينة من أمر الشاعر في شتى جوانب سيرته وشاعريته..

* * *

قتـادة بـن مسلمـة الحنفـي

بعض صلاة الصباح

وهذا شاعر جاهلي آخر. . ولكنه ليس كسلفه الأعشى . . فلا هو صاحب كأس وهـوى، ولا خدين قِيان وندامى . . ولا هو بالهجَّاء البذيء أو المادح المنـافق . . وإنما هو شاعر فذ، تغلب الحماسة على شعره، وتبدو الرجولة مكتملة مقـومـاتهـا في ثنـاياه . . بيد أنـه مقل . . فما استطعت بعد البحث والتنقيب . . أن أحصـل له إلا على نتف يسيرة، أحسبهـا على جودتها وقوة سبكها ومتانة أسلوبها غير كافية من شاعر كهذا . بل لعلها ليست كل شعره، ولربما ضاع هذا الشعر في متاهات الجهل والنسيان والإهمال أو عدم التدوين .

لندع هذا أو ذاك . . ولنعرف من هو الشاعر؟

إنَّ شاعرنا هذا، من قبيلة «حنيفة»[1] .

ومضارب حنيفة ـ كما هو معلوم ـ على طول الوادي المعروف باسمها، والممتـد من أعـالي (الحيسية) في الشمـال الغـربي حتى تخوم الخرج في الجنوب الشرقي . . وهو وادي اليمامة الشهير، ومن أعظم أودية جزيرة العرب .

وكانت حنيفة قد سكنت إقليم اليمامة قبل الإسلام بنحو ثلاثة قرون، وقد جرى لها فيها طيلة جاهليتها وإسلامها أحداث تاريخية جُلَّى .

وكان قتادة في قومه صاحب شأن ومقام سام . . فهو سيد من ساداتهم . ومشهـود له بالنبل والكرم والشهامة . . وقد ضرب به المثل فقيل : (أقرى من غيث الضريك)[2] . . وهو الذي أجار «الحارث بن ظالم المري» حينما قَتَل في

---

(١) الحماسة، لأبي تمام ص٣١٩ .

(٢) مجمع الأمثال للميداني : ج٢ ص٩٦ . والضريك : الفقير .

«يوم رحرحان»[1] خالد بن جعفر بن كلاب، وخرج يلوذ بالقفار ويحتمي بظل القبائل، فلم يجد من يُعنى بحفظه وحمايته من مخالب طالبي ثأر خالد بن جعفر ـ لم يجد سوى هذا الحنفي اليمامي: قتادة بن مسلمة، فقد أجار الحارث وأحسن إليه..[2].

قلت: إن الحماسة والفخر أهم أغراضه الشعرية ـ إن لم تكن كل ما قال ـ وبين يديّ الآن قصيدة أوردها له صاحب الحماسة «أبو تمام» في مختاراته، كان شاعرنا قد قالها مشيداً ببطولته هو نفسه تجاه أعدائه، وكيف أَعْمَلَ فيهم الرماح والسيوف فبطش بساداتهم ورجالاتهم.. وذاكراً بالإكبار والإعجاب بسالة قومه من بني حنيفة، وما كان لهم من مواقف مشهودة في ميادين الحرب والنضال.

يبدأ قصيدته بتوبيخ زوجته، حين بادرت إليه صباحاً، تلومه على هوانه وتقاعسه كما زعمت، وتعذله خفة منها وسفهاً ـ وتنسبه دون تحقق ـ إلى الخور والعجز ـ.

بكرت عليَّ من السفاه تلومني سَفَهاً تُعَجِّز بعلها وتلوم

وذلك:

لما رأتني قد رزئت فوارسي وبدت بجسمي نهكة وكلوم

.. ولم أكن أول امرىء أصابه دهره ونكبه فوارس باسلون بمصيبة ـ ومثلُ هذا لا عار فيه ـ وإني ما برحت أقاتلهم قتالاً يقصر من دونه الوصف، في حين كانت (تميم) القبيلة العتيدة تتحصن من حد الرماح والسيوف بأشراف آل مقاعس ـ.

---

(١) اسم لجبل وقعت المعركة حوله. ويقع إلى الغرب من الربذة (البركة اليوم) وجنوب غرب مهد الذهب على ضفاف وادي حوس غرباً ولا زال معروفاً باسمه.

(٢) الحماسة لأبي تمام ص٣١٩، ٣٢٠.

ما كنتُ أولَ من أصاب بنكبة دهر وحي باسلون صميم
قاتلتهم حتى تكافأ جمعهم والخيل في سَبَلَ الدماء تعوم[1]
إذ تتقي بسراة آل مقاعس حد الأسنة والسيوف «تميم»

ويعترف الشاعر ـ شأن شعراء الجاهلية في صدق تصوير العاطفة وهواجس النفس ـ بأنه لم يجد قبل لقاء هؤلاء الفرسان مثلهم في الذود عن حماهم والدفاع عن أنفسهم، فيقول:

لم ألق قبلهمو فوارسَ مثلَهم أحمى وهُنَّ هوازمٌ وهزيم

ويسترسل واصفاً ساعة حمي الوطيس، وكيف طعن بمساعدة أقرانه من بني حنيفة سادة أعدائه وشجعانهم.. فيقول:

لما التقى الصفان واختلف القنا والخيل في نَقْع العجاج أزوم
في النقع ساهمة الوجوه عوابس وبهن من دعس الرماح كُلوم
يممت كبشهمو بطعنة فيصل فهوى لحر الوجه وهو دميم
ومعي أسود ـ من حنيفة ـ في الوغى للبيض فوق رؤوسهم تسويم[2]
قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم في البَيْض والحلَق الدلاص نجوم[3]
فلئن بقيت لأرحلنَّ بغزوة تحوي الغنائم أو يموتَ كريم

إنها ـ وأيم الحق ـ لعزة قعساء ومجد أثيل.. وإنها لروح عربية أبية نابضة تغدو وتروح بين حنايا أضلاعه، وتمتزج وتدور مع دمه في عروقه، وإنه لخلق زكي أملته سماحة الصحراء وفطرة النفس البشرية وطبيعة الحياة العربية.. وإنه لشاعر ـ حقاً ـ انصهرت روحه في «بوتقة» العاطفة الصادقة والوعوثة الفكرية.

---

(١) تكافأ: انقلب على وجهه منهزماً، السَّبَل: السائل من المطر والدم.

(٢) التسويم: السمة والأثر.

(٣) البيض: ما يوضع على الرأس لحمايته، والحلق الدلاص: الدروع المرنة.

ولكن من المؤسف أنه شاعر مغمور جداً . . لا تكاد تذكر عنه كتب الأدب وتاريخه إلا القليل، بل إن معظم هذه الكتب لم تشر إليه من قريب أو بعيد.

فعسى أن نكون قد عرفنا عنه ولو هذه الفكرة المقتضبة.

***

موسى بن جابر الحنفي

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

من شعراء حنيفة المجيدين، وهو من المخضرمين. كان نصرانيًّا فأسلم. عاش حقبة قصيرة من عمره في عصر الإسلام، وأدرك شطراً كبيراً من أيام الدولة الأموية.. ولكنه ـ مع ذلك ـ لم يتأثر بتلك التيارات المتضاربة المتباينة في الدين والسياسة والتي كانت أمواجها تطغى في عنف وشدة على الحياة العربية والإسلامية آنذاك، وتستبد بأفكار الكثيرين من الدهماء والخاصة.

نعم: كانت هناك ـ بعد الفتنة الكبرى ـ أحزاب في السياسة.. وأحزاب في الدين.. وأحزاب في القومية ـ أحزاب تضطرم نيرانها في حشايا الأمة اضطرام البركان قبيل أن يثور، فهناك القحطانية والعدنانية.. وهناك العلوية والبكرية.. وهناك الهاشمية والأموية.. وهناك العروبة التي هذبها الإسلام والشعوبية المتعصبة الحاقدة. وقد نجم عن كل ذلك فِكَر متطاحنة وعداء مستحكم وخلاف شديد حول الزعامة والإمامة.. ومن الحقيق بهما؟. وكان من جراء ذلك نكبات وهزات لا يزال المسلمون ـ حتى اليوم ـ يتجرعون علقمها ويقاسون ويلاتها.

أقول لم يتأثر هذا الشاعر بهذه الحياة الصاخبة، ولم يُلقِ بالاً إلى هذه الحياة العاجة بالمتناقضات؛ فما رضي أن يزج بنفسه في عالم من الشقاق ومهامه من الشرور، بل آثر الصمت وراحة الضمير والبال حيال هذه الاتجاهات. أو أنه ـ وهذا أقل ما يمكن ـ قد أسهم في خوض هذا الخضم الزاخر من هذه الخصومة وذلك الجدل بما أتاحته له ظروف العامة، ولكنه لم يشأ تصويره في شعره بالرغم من أنه مرآة الحوادث، أو أنه سجله، ولكن

الضياع ذهب به، كما ذهبت أشعار الكثيرين غيره أدراج الرياح.

وكل ما نراه في شعره فورة من فورات الإباء والشمم، تلك الفورة التي تتحشرج في صدره، فيلفظها للملأ على سجيةٍ من النفس وإرادة من الضمير.. ليس غير.

و «موسى» من الأسماء التي أخذ بها العرب واستعملوها بعد نزول القرآن الكريم، وقَلَّ من العرب في أيام الجاهلية من سمى نفسه «موسى» فلعل هذا ـ إذن ـ أثر من آثار الدين الحنيف في الحياة واللغة والأدب. فبرغم أن شاعرنا ولُد نصرانيًّا إلا أن تأثير الإسلام كان مبكراً على ما يبدو.

ويكنى موسى بن جابر بابن الفريعة، أو هكذا يقال له، كما كان يقال لشاعر النبوة حسان بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ ويمتاز هذا الشاعر الحنفي بخصلة أخلاقية نبيلة هي علو النفس وإباؤها وترفعها عن مواطن الهوان والصغار، فلم يعرض شعره في مزاد الموسم الأدبي الذي اعتاد أرباب القريض ارتياده كلما شغفوا بمواقفه التي تدر عليهم المال الوفير، وإنما كان بمنأى عن ذلك، فسار على محجة صريحة من الالتزام.

اسمعه يقول:

لا أشتهي يا قوم ـ إلا كارهاً ـ باب الأمير ولا دفاع الحاجب
ومن الرجال أسنة مذروبة ومزندون حضورهم كالغائب
منهم ليوث لا ترام، وبعضهم مما قمشت[1] وضم حبل الحاطب

على أن قوله «إلا كارهاً» له معناه البعيد.

ولا تنس ـ يا قارئي العزيز ـ أنه يقصد بالأمير هنا عبدالملك بن مروان،

---

(١) قمشت: أي جمعت من هنا وهناك.. وكذلك الحاطب ـ ولاسيما حاطب الليل ـ يجمع في حبله الجيد والرديء.

«إمبراطور» الدولة الأموية العربية الإسلامية في أزهى عصورها.

ومع رفعة نفسه.. كان ثبت الجنان، صلب العود، مقداماً شجاعاً، استنجد مرة بقومه على أحد أعدائه، فلم يلتفت إليه أو يخف لنجدته إنسان، فما فت ذلك في عضده ولا أوهى من عزمه.. بل هب يناضل وحده حتى قدر له الظفر والنصر وكتب لأعدائه الهزيمة والخذلان.

اصغ إليه، وهو يلوم قومه الحنفيين على ما كان منهم من القعود عن نصرته، وتعللهم ـ ظاهراً ـ بالمعاذير المشوبة بالكذب، ويخبر أن ذلك التخلي لم يزده سوى درجات في الرفعة والسناء، ولم يزدهم ـ هم ـ غير الذل والخنوع والتخضع.. إنه يقول:

ذهبتم ولذتم بالأمير وقلتم
تركنا أحاديثاً ولحماً موضعا
فما زادني إلا سناء ورفعة
وما زادكم في الناس إلا تخضعا
فما نفرت جني ولا فُلَّ مبردي
ولا أصبحت طيري من الخوف وُقَّعا[1]

وتهكم مرة بقومه وسخر منهم، وضرب تحول الرياح لهم مثلاً حين وصفهم أولاً بالشجاعة ثم نفاها عنهم ثانياً بأسلوب فكه لاذع قارس. فيقول:

كانت حنيفة ـ لا أبالك ـ مرة عند اللقاء أسنة لا تنكل
فرأت حنيفة ما رأت أشياعها والريح أحياناً كذاك تحول

ومن بليغ شعره قوله متمدحاً بكونه يرى الموت أسهل شيء في جنب ما ارتكبه من الأخطار والمغامرات، وإنه جاد بنفسه النفيسة في سبيل الدفاع:

(١) يقال: نفرت جنه إذا ضعف أمره، وفُلَّ مبرده: إذا تعذر عليه مراده.

ألـــم تريا أنــي حميت حقـيقـتـي   وباشرت حد الموت والموت دونها
وجُــدْتُ بنفسٍ لا يُجــاد بمثلهــا   وقلت: اطمئني حيث ساءت ظنونها
ومــا خير مال لا يقي الــذَّمَ ربَّــه   بنفس امريء في حقهــا لا يهينها

وقوله:

فقــلـت لزيد لا تتـرتــر فإنــهــم
يرون الــمــنــايا دون قتــلك أو قتـلي(١)
فإن وضــعــوا حربــاً فضعهــا وإن أبــوا
فعُــرضــة عضّ الحــرب مثلُك أو مثلي(٢)
وإن رفعوا الحرب العوان التي ترى   فشُبَّ وقود الحرب بالحطب الجزل

وقوله في يوم (أباض):

فلا يغــرنَّــك فيمــا مضــى   جخــيفُ قريش وإكــثــارهــا
غداةَ علا عرضَــنــا (خــالــدٌ)   وســالت (أبــاض) وهــدّارهــا(٣)

وكل شعره على هذا النمط، يتسم بالجزالة والفخامة، وتظهر عليه مسحة من الجمال الفني الدقيق.. كما تلحظ عليه بعض سمات من حياة البداوة، أو على الأقل من حياة العرب الجاهلية، وهو في هذا ليس وحيد عصره، بل يشاركه في ذلك جمهرة شعراء الدولة الأموية.. وما العصر الأموي ـ من الناحية الأدبية ـ إلا امتداداً للعصر الجاهلي بخياله وخشونته.. إلخ.

---

(١) لا تترتر: لا تتزعج ولا تجبن.
(٢) عُرضة عض الحرب: أي تلقيها بقوة وصلابة. ومعنى البيت: إن جنحوا للسلم فاجنح لها وإن أبوا إلا الحرب فمثلي ومثلك أهلها وعدتها.
(٣) أباض: قرية كانت عامرة بأعلى وادي حنيفة، وعندها وقعت الملاقاة بين جيش خالد بن الوليد وجيش مسيلمة بن حبيب وبقربها الهدار.

نويـــب السَّلولـــي

٠٠٠ ـ ١٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

يدور بحثي في هذه المرة، حول شاعر يمامي مجهول، هو عبدالملك بن عبدالعزيز السلولي.

ولد نويب ـ وهذا لقبه ـ في اليمامة في العهد الأموي، ونشأ بها بعيداً عن الأمصار الأخرى، فلم يسمع لساناً أعجميًّا سماع تأثير، ولم يختلط بشعوبي يفسد عليه لغته وعروبيته، فشب مطبوعاً على الفصاحة والبلاغة واستقامة اللسان.

وإذا أردنا أن نريح أنفسنا من عناء الاستقصاء، قلنا إنه يشبه ـ إلى حد بعيد ـ معاصريه من الشعراء الإسلاميين في ناحية الغزل والنسيب فقط، يجمعه وإياهم شرف القول وتقارب الطريقة والأسلوب واللغة ثم نقاء الجيب وصفاء الطبع.

خذ مثلاً قوله: في معشوقته ـ وتأمله معي:

أرَّق العينَ ـ من الشوق ـ السهرْ وصبا القلب إلى «أم عمر»

وبعد الأرق المضني:

واعترتني فكرة من حبها ويح هذا القلب من طول الفكر

أجل.. فالحب سلطانه جائر جبار لا تحد سطوته، وهو ماهر في غزو النفوس وتحطيم القلوب وهو على رأي شاعرنا ـ وفي الواقع ـ قضاء وقدر لا مندوحة منه:

قدر سيق.. فمن يملكه أين من يملك أسباب القدر؟!

شعر فيه عاطفة دفاقة.. وفيه رشاقة لفظ وإشراق أسلوب.. وله روعة في النفس ونوطة بالقلب.. ولكن قائله ـ ويا للتاريخ ما أشد ما ظلم الماضين ـ مع هذا كله، خامل الذكر، خافت الصوت، عديم الظهور، ويعلل لنا صاحب (الأغاني) هذا، فيقول: (ولم يفد إلى خليفة، ولا وجدت له مديحاً في الأكابر والرؤساء، فأخمل ذلك ذكره)[1].. وهذا هو الواقع، فهو لم يتبوأ مكانه الأدبي بين شعرائنا الماضين الذين عاشوا في عصور من لوازم الشاعرية التي تريد الظهور أن يتصف صاحبها بالملق والمداجاة، فيفد على الولاة مستجديًا، ويحبر فيهم القصائد مادحاً ـ بالحق وبالباطل ـ ليحظى بما يجودون به عليه من الهبات والصلات.. ولكن شاعرنا قد تحاشى ـ على ما نرى ـ أن يتصف بهذه الصفة، وأبى عليه طبعه العف أن يكون ممن يُحثى عليهم التراب.

لقد راض نفسه على قول الشعر منذ نعومة أظفاره، حتى ضرب فيه بسهم وافر من حيث الجودة ـ لا من حيث الكمية ـ وهو ـ على ما يقول صاحب الأغاني ـ شاعر مقل ـ ونَفَسُهُ قصير.

ويبدو على شعره قرب الفهم ووضوح المعنى وسهولة اللغة وصدق العاطفة ورقة التشبيه والتصوير، كما يظهر ذلك جليًا في قصيدته التي يخاطب فيها (صاحبته):

ليظل قلبي من مخافة بينكم ... مثل الجناح معلقاً في «نفنف»[2]
وأظل في مجرى الأحبة طالباً ... لرضاك مما جار إن لم تسعفي
كأخي الفلاة يغره من مائه ... قطع السراب جرى بقاعٍ صفصف
أهراقَ نطفته فلما جاءها ... وجد المنية عندها لم تخلف

(١) ج٢٠: ص٧٩.
(٢) النفنف: الفضاء.

هذا تشبيه جيد، تشبيه القلب عند الخوف بجناح الطائر السابح في الهواء.

أما تشبيه المُوَلَّه الذي قد جار عليه «الحب» فأضناه، وقسا عليه الدهر فأفقده محبوبه وباعد بينه وبينه، فراح يجد في طلبه والبحث عنه، ولكنه لم يستطع الوصول إليه ـ تشبيه هذا الصب بالمسافر الذي ليس معه سوى ماء قليل (نطفة) فرأى السراب فظنه ماءً غزيراً، فأهرق ما معه من القليل، فلما جاء موضع السراب، لم يجده شيئاً، بل وجد منيته تترصده ولم تخلف ترصدها.. هذا التشبيه من أبدع التشبيهات.

ولعلنا لا نغلو حينما نقرن «نويباً» بعمر بن أبي ربيعة في أسلوبه الغزلي، وإن كان لكل واحد منهما سمة وميزة خاصتين به. ونستطيع أن نعزز هذا بقصة نويب وولوعه بإحدى فتيات اليمامة التي تدعى (سعدى بنت أزهر) فقصته مع هذه الفتاة تماثل قصص عمر في بعض الوجوه.. ذكروا أن «نويباً»[1] كان يهواها وقد شغفه حبها، وقال فيها الشعر فبلغها تشبيه بها، وصادف أن مر ذات يوم أمام فسطاطها، وهي جالسة مع بعض لداتها وأترابها فعرفنها به، وكان دميم الخلقة قبيح الشكل، فلم يرق لناظرها. فقامت إليه مستعينة بمن معها ـ كما تقول الرواية ـ فضربنه ومزقن ملابسه وجعلنها أسمالاً. فشكى حاله إلى (والي اليمامة)[2] فما أصاخ له الوالي ـ على ما يبدو ـ ولا أولاه أذناً صاغية لأنه يعلم أن شكايته لا تعدو الدعابة والمزح ـ وكذلك أراد الشاعر ـ فقال يصف هذه المعركة:

إن الغواني جرحن في جسدي ... من بعد ما فرغن من كبدي
وقد شققن الرداء ثمتَ لم ... يعد عليهن «صاحب البلد»

(١) الأغاني ج٢٠ ص٧٩.

(٢) وأغلب الظن أن الوالي هو إبراهيم بن عربي.

لم يعـدني (الأحـوال) المشوم وقد أبـصـر ما قد فعلن في جسـدي

فلمـا أدركت (سعدى) تعلقه الشديد بها، وتحدث الناس بحديث هذا الحب، بدأت تراجع نفسها وداخلها شيء من الرقة له والعطف عليه. فمر بها ذات عصر فلم تفعل به فعلها الأول ـ وقد يكون شاعرنا طامعاً فيه ـ بل غضت طرفها وأسدلت خمارها على وجهها، فأثارت في الشاعر كامن صبوته وأججت سعير عاطفته، فقال من فوره:

ألا أيهـا السـاري الذي ليس نائماً على ترةٍ إن متُّ من حبـهـا غدا
خذوا بدمي سعـدى فسعدى منيتها غداة اللقـا صادت فؤاداً مقصـدا
بآية ما ردت ـ غداة لقـيتـهـا ـ على طرف عينيهـا الـرداء المـوردا

وبينما القافلة تطوي الفيافي وقع نظر سعدى على (نويب) وهو يسرع ـ في شيء من الهوس فيمسك بخطام ناقتها الوجناء ويطفق شادياً:

قل للتـي بكـرت تريد رحـيلا للحـج، إذ وجـدت إليه سبيلا
ما تصـنـعين بحـجـة أو عمـرة لا تقبـلان.. وقـد قتـلت قتيلا
أحـيي قتـيلك ثم حجي وانسكي فيكـون حجـك خالصـاً مقبولا

أتراه هنا مجنوناً؟.. وهل الأمر لا يطاق حقاً؟.

ما أشد ما يجمع خيال الشاعر. بل ما أشد ما يقسو سلطان الحب على المرء فيرى الأمور خلاف ما هي عليه، أتراه يعتقد حقاً ـ أن وصال المحب أوجب من أداء فريضة الحج؟.. طبعاً إنه لا يرى ذلك.. ولكن «الهوى يعمي ويصم» لقد انتهرته (سعدى) وأمرته ـ وهي غضبى ـ أن يدع خطام ناقتها، وأن ينـأى عنها بعيداً، فيرجع الشاعر مرغماً وقد جثم فوق صدره كابوس السدم والأسى، ثم تمضي الأيام سريعاً، فتتزوج (سعدى) من شاعر يمامي آخر، هو

(يحي ابن أبي حفصة)[1]، فما يكاد النبأ يطرق سمع نويب، حتى يهب مذعوراً، ينعى حظه العاثر، ويندب أمله الذبيح، ويهجو ذلك الغريم الذي استولى على جوهرته الثمينة:

ألا يا دار (سعدى) كلمينا ... وما في دار (سعدى) من مجيب!
ولما ضمها وحوى عليها ... تركت له ـ بعافية ـ نصيبي..

أتراه جواداً إلى هذا الحد.. إذن لماذا يقول في هجو من ترك له نصيبه ودعا لها بالعافية:

إذا فقد الرغيف بكى عليه ... وأتبع ذاك تشقيق الجيوب
يعذب أهله في القرص حتى ... يظلوا منه في يوم عصيب

لست أدري.. هل بَخُل الرجل إلى هذا الحد؟ أم أنه ادعاء من شاعرنا؟. وأدع التحقيق لأبي الأدب العربي (الجاحظ) ـ في بخلائه.. ـ لأفرغ لجس نبض ذلك الصب الدنف ولأسبر غور حبه عن طريق شعره:

ألا في سبيل الله نفس تقسمت ... شعاعاً.. وقلب للحسان صديق
أفاقت قلوب كُنَّ عذبن بالهوى ... ـ زماناً ـ وقلبي ما أراه يفيق
سرقتِ فؤادي ثم لا ترجعينه ... وبعض الغواني للقلوب سروق

ولقد قسا فدعا على حبيبته بأن تذوق من ألم الحب وأن يلفحها من ناره مثل ما ذاق وما لفحه:

لعلك إن ننأى جميعاً بغلة ... تذوقين من حر الهوى وأذوق

ثم يعز عليه أن فقد قلبه في أثرها، فيقول:

فقلت ـ وقد بقيت بدون قلب ـ ... بقلبي يا (سعيدى) أين أينا؟؟

---

(١) انظر الكلام عن هذا الشاعر في موضع آخر من هذا الكتاب.

ولكنه ينقر في جلمد صلد:

فقالوا، إذ شكوت المطل منها ... لعمرك من سمعت به قضينا
ومن هذا الذي إن جاء يشكو ... إلينا الحب من حب شفينا

ولا ندري؛ ماذا كانت نهاية غرامه وهيامه، غير أننا نرى أنه قضى بقية عمره يلذعه الكمد ويكويه الأسى، لا يهنأ له طعام ولا تلذ له حياة، حتى بدا عليه الضوى وبان منه العجف، وكل ما يتسلى به هو الوقوف على الأطلال والنحيب أمامها، شأنه شأن صرعى الهوى:

سل الأطلال، إن نفع السؤال ... وإن لم يربع الركب العجال
عن (الخَوْد) التي قتلتك ظلماً ... وليس بها إذا بطشتْ قتال
أصابك «مقلتان» لها و «جيد» ... و«أشنب» بارد عذب زلال
أيا ثارات من قتلته (سعدى) ... دمي لا تطلبوه! لها حلال
أرق لها، وأشفق بعد قتلي ... على سعدى ـ وان قل النوال

إذن.. لماذا تدعو عليها بأن تتجرع كأس الحب؟؟.. لا أدري! وكم للشعراء من مفارقات.

ويقول بعض المؤرخين أن (نويباً) هذا قضى في تمام المائة الأولى للهجرة.

جريـــــر

٢٨ ـ ١١٠هـ

شاعران اثنان، لو لم يكن لليمامة إلا هما لكفاها ذلك مجداً أدبيًّا!

أما الأول، فأعشى قيس وربيب منفوحة. . وقد سبقت الإحاطة به من جل الوجوه. ولاسيما الجانب الشعري. .

وأما الثاني، فهو من يتناوله هذا القلم الآن. . وأعني به جريراً. .

ولجرير صوت مجلجل في سماء الشعر العربي. . فهو أحد أعلامه المبرزين. . وهو زعيم عصر من عصوره امتاز بنفاق الشعر ووفرة الشعراء، وبتنمية المواهب وتقدير العبقريات. . وما بالك بعصر أنجب للعالم الأدبي أمثال جرير والأخطل والفرزدق وابن أبي ربيعة وجميل بثينة وكثير عزة وعبدالله بن قيس الرقيات وقطري بن الفجاءة. وما بالك بعصر قيض الله له خلفاء عرفوا ماهية الأدب وروح الشعر. . فرفعوا من شأنه وأعلوا من مكانة رجاله. بل ما بالك بخلفاء، هم نقاد القريض وفاحصو الشعر ومميزو غثه من سمينه. وما عبدالملك بن مروان إلا صورة لقيمة الشعر ورواجه في العقول والنفوس وما هو أيضاً إلا حقيقة بارزة للناقد الدقيق والمفسر الفاهم. . الملم بأصول هذا الفن والمحيط بجليله ودقيقه.

صحيح. . ان العصر العباسي هو العصر الذهبي للأدب العربي، وليس في ذلك أي مشادة. . لكنه عصر ثقافات امتزجت فأوحت بهذا الأدب المزدوج الذي تلمح فيه العقليات المتنوعة والقوميات المتضاربة. . فهناك دعاة قومية شعوبية فارسية. . وهناك أرباب عروبة قحة. . وهنا دعاة تفسخ وإلحاد. . إلخ.

لكن العصر الأموي ـ في عمومه ـ كان عصر عروبة صريحة . . والمظهر العربي يكسو حياة الأدب والشعر . . والشعراء عموماً كانوا صرحاء في نزعاتهم العربية والإسلامية . . وإن كان هناك تباين في بعض مفاهيم الرأي والعقيدة .

فالحياة الأموية عربية شكلاً وموضوعاً . . وهي إلى أساليب الحياة الجاهلية وأنماطها قريبة . . وشعراؤها أدنى إلى روح الشعر الجاهلي من غيره مع فروق بسيطة في بعض طرق الأسلوب والعرض واللغة .

ويعتبر جرير صحافة هذا العهد . . فشعره صورة صادقة ناطقة لحياة مجتمعه . . وما كان جرير يوماً ـ وهو ابن الضعة ـ سوى فرد من أفراد هذا المجتمع . . تعبر بمخيلته أحاسيس محيطه وتمر بفكره خواطر بيئته . . وجميع هذه الظواهر سنراها جلية في شعره على ضوء التحليل .

ولا بأس بعد هذا التمهيد، أن نعرف من هو جرير . .

إنه جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخطفى بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم[1] .

ولم يكن أبوه (عطية) ذا شأن يذكر . . بل كان خامل الذكر موصوفاً بالبخل والمهانة . . إلا أنه كان يقول الشعر على قلة . . وينقل الرواة أن جريراً كان ساخطاً على أبيه عاقاً له .

أما جده (الخطفى) فأعلى شأناً من (عطية) ولم يُرْمَ قط بما يشينه أو يشوه سمعته . . وكان وفير المال . . سمح المحيا . . وقد افتخر به مرة جرير على الفرزدق . . فقال :

---

(١) الأغاني : ج٧ ص٣٥ .

بَنَـى (الـخـطفى) حتى رضينـا بنـاءه
فهـل أنت إن لم يرضـك «القين» قاتله!؟

والقين: الحداد. وقد شاع استعمال هذه الكلمة في شعر جرير في هجوه للفـرزدق إذ كانت جدة هذا متهمة بجبير القين.. فاستغل جرير التهمة شر استغلال. كما كان الخطفى شاعراً أيضاً.

وقد شاعت في الشعر نسبة جرير إلى «كليب بن يربوع». ولكنه لم يكن يفخر بها لقلة مآثرها ونضوب ماء الفخر بها.. بل كان يتجاوزها إلى يربوع لأن لها مآثر فيفخر بها في كثير من ديوانه.

وكان الفرزدق يتعمد نسبته إلى «كليب» في معرض الهجاء.
ويكنى جرير بأبي «حزرة» أحد أبنائه.

ويحوك الرواة حول تسمية جرير بهذا الاسم رواية هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة.. وتتلخص الخرافة في أن أمه رأت ذات ليلة في منامها ـ وهي حامل به ـ أنها تلد «الجرير» ـ وهو حبل من أدم في عنق الدابة ـ فكان يتلوى على عنق رجل فيخنقه، ثم على عنق رجل آخر حتى كاد يقتل عدداً من الناس، فنهضت من نومها فزعة وسردت رؤياها على مُعَبِّر فقال: إن صدقتك رؤياك ولدتِ ولداً يكون بلاء على الناس، فلما ولدته سمته «جريراً».

وأغلب الظن أن خيوط هذه الخرافة نُسجت بعد حدوث المهاجاة بينه وبين البعيث والأخطل والفرزدق ومن دار في فلكهم.

وُلِد «جرير» باليمامة حوالي عام ٢٨هـ في قرية لا يكاد يُعرف عنها شيء وهي «أثيفية» ـ أو أثيفيات أو ذات الأثافي ـ وتسمى في عصرنا الحاضر «أثيثية» بثاء بدل الفاء ـ وهي عبارة عن أكيمات ثلاث تشبه أثافي القدر، واقعة في إقليم

الوشم في شمال غَرْب اليمامة . . وقد ذكرها عمارة بن عقيل بن بلال :

فإن تحضروا «ذات الأثافي» فإنكم بهـا أحـد الأيام عظم المصـائب

ومن الرواة من يقول بأن مسقط رأسه هي مدينة «حجر» حاضرة اليمامة ، والتي قامت في موضعها مدينة الرياض اليوم .

على أن مثل هذا الخلاف لا يقدم أو يؤخر .

وقد ولد جرير لسبعة أشهر ، فظل جسمه نحيفاً ، وعيَّره بذلك الفرزدق حين قال مناقضاً له :

(وأنت ابن صغرى لم تتم شهورها) .

ونشأ في اليمامة نشأة بدوية بكل ما تحمله هذه النسبة من خشونة وصراحة وسذاجة وسلامة فطرة ، وظلت هذه البداوة عالقة بأطوار حياته ، وكان في عنفوان شبابه يرعى إبل أبيه وغنمه . . الأمر الذي وجد فيه الفرزدق مجالاً لهجاء خصمه والتشنيع به . . كقوله :

وأنـت تسـوق بَهْـمَ بنـي كليب تطرطب دائماً تشلي «الحـوارا»[1]

وهو يعني بالحوار فحل غنم جرير .

كان جرير ـ في جملته ـ بدويًّا متعصباً لقبيلته . . ولكنه مع بداوته وعصبيته كان كريم الأخلاق ، لين الجانب مع الموالي ، فمن نبل أخلاقه : شفاعته بالفرزدق ـ وهو خصمه الألد ـ حينما سجنه خالد القسري ، ورثاؤه له لما اختطفته المنون ، ومن لين جانبه مع الموالي أنه مدحهم في شعره مما جعلهم يحبونه كثيراً ويحتفلون به . . ومن مديحه لهم قوله مخاطباً زوجته «أم حكيم» وكانت رازية :

---

(١) تطرطب وتشلي بمعنى واحد : أي تدعو الغنم .

لقـد زدتِ أهل الري عندي ملاحة وحـبَّبْتِ أضعـافـاً إليّ المـواليا

كمـا كان سليط اللسـان، مرَّ الخصـومة، في حين كان عفيفاً ديِّناً كثير التهجد وقراءة القرآن، مستقيم المبدأ لا يمدح اليوم من هجاه أمس ولا يهجو اليوم من مدح من قبل..

وكـان لجـرير ثلاثـة أخـوة وهم: عمرو ـ وكان يقول الشعر ـ وأبو الورد وحكيم، وقد ورد ذكرهم في شعره في بابي العتب والرثاء.

وتـزوج جرير أربع نسوة هن: أم حزرة، وأم حكيم، وأمامة، وسلمى، وجميعن كن محبوبات في نفسه وكثيراً ما كان يتغزل فيهن.

وقد بلغ أولاده وأحفاده في حياته رقماً بعيداً.. ولذلك يقول:

ماذا ترى في عيال قد برمتُ بهـم لـم تحصَ عدتـهـم إلا بعـدَّاد
كانـوا ثمـانين أو زادوا ثمـانية[1] لولا رجـاؤك قد قَتَّـلت أولادي

يقول هذا مستجديًّا عبدالملك بن مروان.

وقد ورد في شعره أسماء كثير من أولاده.. ومنهم حزرة وبلال وكانا شاعرين.

ومن أحفاد جرير: عقيل بن بلال ـ وكان شاعراً ـ وكذلك كان ابن حفيده «عمارة بن عقيل» شاعراً مجيداً مكثراً، وستأتي ترجمة عمارة في غضون هذا الكتاب.

ولعل القارىء قد لاحظ أن بيت «جرير» بيت شعر وأدب، فإنَّ ستة من الشعراء قد توارثوا هذا الفن الخالد كابراً عن كابر. «ولم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الإسلام ما اتصل في ولد جرير» كما قال ذلك ابن قتيبة.

---

(١) «أو» هنا بمعنى الواو؛ أي كانوا ثمانية وثمانين.

لكن كيف قال الشعر. . !

تبدأ قصة الشعر لدى جرير، عندما تنازع بنو الخطفى مع بني عمهم الأدنين «بني جحيش» في غدير بالقاعة[1]، فجعل بنو الخطفى يهجونهم، وهؤلاء لا يستطيعون الشعر وقرضه، فاستعانوا بغسان السليطي ـ وكان شاعراً فحلاً.

وورد جرير على أهله ذات يوم بإعجالتهم[2] فإذا هو بجمع. فسأل: ما الخبر؟ فقيل: غسان ينشدنا. فقال جرير: احملوني على جمل، فركبه وأقبل على غسان وهو قائم في جماعته. . فرجز بهم جرير ـ وذلك أول شعر قاله:

لا تحسبني عن «سليط» غافلاً
إن تغش ليلاً بسليط نازلا
لا تلق أقراناً ولا صواهلا
ولا قرى للنازلين عاجلا
أبلغ سليط اللوم خبلاً خابلا. . إلخ

وتابع ـ بعد ذلك ـ أراجيز الهجاء. . ومن الأراجيز انتقل إلى القصائد؛ فقال غسان قصيدة هجا بها جريراً وقومه، فرد عليه هذا بأخرى من وزنها وعلى رويها. . وجاء فيها:

ألا ليت شعري عن سليط ألم تجد سليط سوى غسان جاراً يجيرها؟!
فقد ضمنوا الأحساب صاحب سوءة يناجي بها نفساً خبيثاً ضميرها

فأحس بنو الخطفى عندئذ بأن جريراً شاعر حقاً يقارع غسان وغيره. وفعلاً، لقد أفحم جرير غسان وكثيراً ممن استعان بهم غسان.

(١) قال الحموي في (معجم البلدان) ج٤ ص٢٩٨: القاعة من بلاد سعد بن زيد مناة بن تميم قِبَل يبرين.

(٢) الإعجالة: اللبن يتعجل به الراعي إلى الدار.

وقدم البعيث المجاشعي إلى بني يربوع يحادثهم في شأن إبلٍ له سُرقت، فوجد التهاجي على أشده بين غسان وجرير، فرفع البعيث عقيرته ضد جرير ـ ويا لتعس الحظ!ـ فكان هذا إيذاناً باندلاع نار الهجاء بين جرير والبعيث.

ثم أعان الفرزدقُ المجاشعيَّ ابن عمه، وثمة دخل جرير في أهم أطواره الشعرية.. ويتمثل ذلك في «النقائض»[1] التي رددت صداها الدنيا وشغلت أفكار الملوك والوزراء وعامة العرب ـ من بادية وحاضرة ـ آنذاك.

وأقول بكل إيجاز: إن بني كليب كانوا يمنعون جريراً ـ في أول عهده بالشعر ـ عن قرضه وذلك خشية ضعفه في مهاجاة خصومهم.. ولكنه استطاع أن يظهر بشعره ويهزم عدداً من الشعراء، ويعيش على مدحه للولاة والخلفاء، حتى صار من شعراء الخليفة الأموي الرسميين ـ إن جازت الصفة ـ وقد بلغ عطاؤه السنوي من الخليفة أكثر من أربعة آلاف درهم مع ما يتبعها، يتحمل في سبيلها قطع المفازات الممتدة بين اليمامة وبلاد الشام.. وقد لمح لهذا بقوله:

لما تشوق بعض القوم قلت لهم:
أين «اليمامة» من عين «السواجير»؟![2]

ولما أقعدته الشيخوخة صار يبعث بأشعاره.

شعر جرير:

قلنا إن جريراً كان طيب القلب، حاد الخلق، صافي الطبع، نقي الجيب، رقيق الشعور، وقد ظهر أثر ذلك كله في شعره، فإنّ أهم ما يمتاز به

(١) النقائض: مصطلح أدبي أطلقه أبو عبيدة على الأهاجي التي دارت بين جرير وخصومه، ولاسيما خصميه العتيدين الفرزدق والأخطل، وقد جمعها أبو عبيدة في كتاب يحمل الاسم نفسه.

(٢) عين السواجير ـ كما في معجم البلدان ـ نبع مائي في منبج من بلاد الشام.

حلاوة الغزل، ومرارة الهجاء، وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. . هذا إلى طلاوة الأسلوب، وفيض الطبع وقلة التكلف وعدم التقيد بتتالي المعاني في القصيدة تتاليًا منطقيًا، وعلى الجملة، فقد كان ـ كما قال الأستاذ أحمد حسن الزيات[1] ـ «أظهر في سماء الشعر وأقرب إلى صفة الشاعر، وأكثر شيوعاً من الأخطل والفرزدق، فإن الأول لم يُجد إلا في المدح والهجاء والخمر، والثاني لم ينبغ إلا في الفخر».

ونريد أن نطبّق هذه النظرة عمليًا ونستخلص براهينها في شعر شاعرنا.

اتسم جرير بشاعرية فياضة. . ولهذا قال الأخطل: أن جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر. فتراه في شعره مرسل السجية، سهل الأسلوب، يرغب في الطريق السهل، ويطفيء حرارة الجد ببرودة الهزل «ويقابل الكمي الهاجم في سلاحه ولأمته، وهو في ثوب المهرج وبزته وضحكته».

فلا غرابة إذن أن يجعل من المعنى المتداول معنى رائعاً بديعاً كأن لم يسبقه إليه أحد، وأن يحيل المعنى البعيد إلى معنى جلي قريب.

أما قلة التكلف فمظهر يسود شعر جرير، فهو لا يقسر شاعريته على أسلوبٍ مُا أو تعبير خاص، بل يلفظ فيض خاطره كما هو، ويسوق فكرته كما بادرته. . وكان من نتيجة هذا أن كثر في شعره الالتفات ـ وهو مرتبة في البلاغة ـ فتارة يخاطب الغائب وأخرى يصرف خطابه إلى الحاضر. فتتنازع الضمائر مظهر الأسلوب. . كما تتنازعه أيضاً ضمائر الجمع وضمائر الفرد. . وهكذا. والغريب أنه قد ينادي من يتغزل فيها بشتى الأسماء والكُنى في القصيدة الواحدة. وفيما يلي بضعة أبيات من قصيدة له في الغزل. وسندرك منها هذه الحقائق:

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص١٥٨.

ما كنتُ أول مشتاقٍ أخي طربٍ
هاجت له غدوات البين أحزانا
يا أم عمروٍ! جزاكِ الله مغفرة
ردي علي فؤادي كالذي كانا
ألستِ أحسنَ من يمشي على قدم
يا أملح الناس - كل الناس - إنسانا(١)
يلقى غريمكمو من غير عُسرتكم
بالبذل بخلاً وبالإحسان حرمانا
يا أم عثمان! إن الحب عن عُرُض
يُصبي الحليم ويُبكي العين أحيانا
ضنت بمَوْرِدَةٍ كانت لنا شَرَعاً
تشفي صدى مُستهام القلب صديانا
كيف التلاقي وما بالقيظ محضركم
منا قريب ولا مبداك مبدانا؟!
نهوى ثرى العرق إذ لم نلق بعدكمُ
كالعرق عرقاً ولا السُّلَّان سُلانا(٢)

ولم يك يهمه أن تتالى معاني القصيدة في حدود القضايا المنطقية.. فمتى تداعت المعاني في نفسه، جاشت بها من غير اعتبار لما بين المعنيين من صلة، قريبة كانت أم بعيدة - وفي هذا المعنى يقول أبو العباس المبرد: «الفرزدق يجيء بالبيت وأخيه، وجرير يجيء بالبيت وابن عمه».. ويقول الفرزدق نفسه «إني وجريراً نغترف من بحر واحد، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر».

(١) يريد إنسان العين.
(٢) العرق: وادٍ كان لبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، والسلان: وادٍ كان لبني عمرو بن تميم.

وللبداوة أثر ظاهر جلي في شعر جرير، فإن التعصب القبلي، واحتقار المهن كالصناعة والحراثة، والتمدح بالقوة والبأس والكرم، وتقديس حرية الفكر، كل هذه قد طبعت شعره بطابع خاص ومازته بسمة ظاهرة.

من ذلك قوله في هجاء البعيث المجاشعي بالنسج:

فتؤخذ من عند البعيث ضريبة ويترك نساجاً بدارين[1] مسلما

وقوله ـ سامحه الله ـ في هجو بني حنيفة بالحراثة:

أصحاب نخل وحيطان ومزرعة سيوفهمْ خشب فيها مساحيها[2]

وقوله في ناقة الفرزدق معرضاً به وهاجياً:

تلفت إنها تحت (ابن قين) حليف الكير والفأس الكهام[3]

ويحلو له ـ كشاعر من شعراء البادية ـ أن يذكر القفار والفلوات والأغوار والنجود والسهول والشعاب والظعائن والعيس، كما يحلو له ذكر أسماء الأماكن وموارد الماء في جزيرة العرب، لاسيما ما كان منها في اليمامة.

أنظر قوله:

أنظر خليلي بأعلى «ثرمداء» ضحى والعيس جائلة أطرافُها جنف

. . وقوله:

هوى «بتهامة» وهو «بنجد» فلبتني التهائم والنجود[4]

---

(١) دارين: جزيرة معروفة قرب القطيف. وكانت مشهورة بالنسيج الذي تصدره إلى أقاليم الجزيرة قال أعشى همدان يهجو لصاً:

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بُجْرَ الحقائب

(٢) المسحاة: أداة حرث التربة.

(٣) الكهام: غير الحاد.

(٤) كان جرير يريد بالهوى أسماء مواضع فيظن بعض الناس أنه يقصد أسماء نسوة يهواهن.

. . وقوله من قصيدة يمدح فيها يزيد بن عبدالملك بن مروان :

كلّفتُ صحبي أهوالاً على ثقة
لله درهمو ـ ركباً ـ وما كلفوا

ساروا إليك من «السهبا» ودونهمو
«فيحان» فـ «الحزن» فالصُّمان فـ «الوَكَف»[1]

يُزجون نحوك أطلاحاً مُخَدَّمةً
قد مسها النكب والانقاب والعَجَف[2]

. . وقوله :

يا حبذا «الخرج» بين «الدام» والأدَمَى»
فالرمث من بُرقة الروحان «فالغَرَف»[3]

وقوله في ظعائن البادية :

يكلفني فؤادي من هواه ظعائن يجتزعن على «رُماح»[4]
ظعائن لم يدن مع النصارى ولا يدرين ما سمك «القُراح»[5]

---

(١) السهباء : واد بشرق الخرج تدكُّ به أكثر أودية اليمامة الشهيرة . لكن مفهومه اليوم يشمل أصقاعاً واسعة في تلك النواحي ، وهي أصقاع خصبة تنتج شتى المزروعات ولاسيما القمح ، وفيحان والصمان : أراضٍ ذات قيعان وخبارٍ ورياض تتاخم الدهناء ، بينها وبين البحرين ، وهي معروفة ، والحزن ـ أو الحزم ـ في اللغة الأرض الصلبة الطيبة المرعى . وحزون اليمامة كثيرة ومنها هذا الحزن الذي يعنيه جرير والواقع بين السهباء والصمان . وتقول العرب : من تربع الحزن وتشتى الصمان وتقيظ الشرف فقد أخصب .

والوكف : حددته المعاجم بأنه إذا انحدرت من الصمان وقعتَ في الوكف .

(٢) الاطلاح : الإبل الحسرى ، المخدّمة : المنعلة ، والنكب : النقب في باطن خف البعير ، العجَف : الهزال .

(٣) الخرج : أحد أقاليم اليمامة كما هو معروف ، والدام والأدمى : جبلان متقاربان حول الخرج ، وبرقة الروحان : روضة معروفة بطيب إنباتها للرمث الذي تشتهيه الإبل . والغرف موضع قال المعجميون إنه بجانب الخرج .

(٤) رماح : مورد ماء قديم يقع بين جبال العرمة والدهناء . وهو اليوم مدينة عامرة .

(٥) القراح : قرية على ساحل البحر في البحرين . ويقصد الشاعر أنهنَّ حضريات ولسن بدويات .

وهنـاك أسمـاء قرى وحواضر كثيرة وردت في شعره أيضاً مثل: ترياع، حجر، البصر، جزرة، رجلتي بقر، ذو طلوح.. إلخ[1].

أما رقة الشعر وحلاوته، فحدث عنها ولا حرج، وقد أوتي هذه الحلاوة وتلك الرقة مع مبلغ عفافته ووعوثة بداوته..

أنظر قوله ـ وهو ما تفرد به دون سواه:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا، ثم لم يُحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له وهن أضعف خلق الله إنسانا

وقوله:

أتنسى إذ تودعنا (سليمى) بعود بشامة؟ سقي البشام
بنفسي من تجنبه عزيز عليَّ.. ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجع النيام

ويقال: إن الفرزدق لما سمع هذه الأبيات الثلاثة من فم أحد المغنين، قال في صراحة عربية معهودة: «ويلَ جرير. ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري.
وما أحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره».

وكان كثير من المغنين في العصر العباسي يُطربون الناس بأشعار جرير، ويشهد بذلك قول الحسن بن هانيء (أبو نواس):

وجدت ألذ عادية الليالي سماع العود بالوتر الفصيح

---

(١) الترياع مورد ماء كان لبني يربوع جماعة جرير، حجر: قاعدة اليمامة وكان الشاعر يكثر من الترداد عليها قاصداً الولاة، وحزرة ماء كان لبني العنبر يقع بين طويق جنوباً ورمال الثويرات شمالاً، ورجلتا بقر: في ديار بني يربوع جماعة جرير وبها دفن ابنه بلال، وذو طلوح: وادٍ ذكر الهمداني انه في سواد باهلة وهو ما يعرف اليوم بعرض القويعية.

ومسمعة إذا ما شئت غنت: (متى كان الخيام بذي طلوح)

يقصد بيت جرير:

متى كان الخيام بذي طلوح سُقيتِ الغيث أيتها الخيام

ذلك أهم ما يجب أن يقال عن شعر جرير. وقد استبانت منه هذه الشاعرية المتدفقة السهلة الناضجة، وبدت معالمها جلية للدارس، وإن كانت هذه المعالم نفسها واضحة من تلقاء نفسها، فليس شعر جرير من ذلكم الذي يستنفد التفكير ويلعب بالفهم.

أغراضه الشعرية:

أهم أغراضه الشعرية هي:

(١) المدح:

وقد بلغ فيه الغاية، وجل مديحه لخلفاء بني أمية كعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبدالعزيز، ويزيد بن عبدالملك، وقد كانوا يجزلون له العطايا ويمدون له حبل الهبات. . فلا غرو - إذن - إن دبج فيهم غرر قصائده وعيون شعره. . وقد كان ينظم القصيدة فيرحل بها من اليمامة إلى دمشق - مسيرة ثلاثين ليلة - متكبداً المشقات وقاطعاً المفازات، فيجد عند أولئك من فيض العطاء ما ينسيه النصب ومشقة السفر، ولما شاب وأقعدته سن الشيخوخة، صار يبعث بقصائده إلى الخليفة بدمشق، فيعود رسوله محملاً بالنعم والجوائز، وكثيراً ما أقطعه الخلفاء أراضي باليمامة، صارت في حوزة أبنائه من بعده. .

ومن جيد مديحه، قصيدته في الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز يستعطفه بها ويستدر شفقته على المحتاجين من أهل اليمامة، ومطلعها:

لجّتْ (أمامة) في لومي وما علِمتُ عَرْضَ (السماوة)[1] روحاتي ولا بُكَري

(١) السماوة أو بادية السماوة مفازة بين العراق والشام.

وجاء فيها:

أنـا لنـرجـو ـ إذا ما الـغيث أخلفنـا ـ
من الـخـليفـة ما نرجـو من الـمـطر
نال الـخـلافـة إذ كانـت له قَدَراً
كمـا أتـى ربَّـه موسـى على قدر ـ
أأذكـر الـجـهـد والـبـلوى الـتي نزلت
أم تكـتـفـي بالـذي بُلِّغـت من خبـري
ما زلـت بعـدك في دارٍ تعـرقـنـي
قد طال بعـدك إصعـادي ومنحـدري[1]
لا ينـفـع الحـاضـرُ المجهـودُ بادينـا
ولا يجـود لنـا بادٍ على حَضَـرِ
كم باليـمـامـة من شعـثـاء أرمـلة
ومـن يتـيم ضعـيف الـصـوت والـبصـر
يدعـوك دعـوة ملهـوف كأن به
مسـاً من الـجـن أو رزءاً من الـنُّشَـرِ[2]
ممـن يعـدك تكـفـي فَقْـدَ والـده
كالـفـرخِ في العش لم ينهض ولم يطرِ

(١) الغزل والنسيب:

رزق الله جريراً رقـة في الشعور وإرهافاً في الحس كما وهبه حلاوة في الجرس وصدقاً في النغمة. . فكان بذلك أقرب إلى صفة الشاعر الحقيقية من منـافسيه، وكان غزله وتشبيبه من وحي الفؤاد الصادق وصدى لما يجيش في

---

(١) تعرقني: أي كما يتعرق اللحم عن العظم.
(٢) النُّشَر: السحر.

النفس ويختلج بين حشايا الصدر من وَجْدٍ ووَلَهٍ وعاطفة وهيام . .

وأحسب أن الغزل ـ أبداً ـ يأتي في مقدمة أغراض الشعر ـ أي شعر ـ لأنه ينبع من الوجدان ويفيض من الصميم . . ولا أخال فيه أيّ أنانية ـ كما يزعم بعضهم ـ فالشاعر الحق من يتقد صبابةً بالجمال ويتيه هياماً بمفاتن السحر.

فالشاعرية ليست وقفاً على أمور الحياة العامة العابرة . . ولكنها مشاعة بين هذه وبين خواطر النفس ونبضات العاطفة.

لقد كان جرير غزلاً بمعنى الكلمة، يستهويه الحسن فيرسمه على لوحة الكون الشعري، ويخلب لبه الجمال فيرويه على مسرح الوجود والإنسانية الرقيقة.

ولعل بيتيه:

إن العيون التي في طرفها حور قَتَلْنَنَا ثم لم يُحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراكَ له وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

لعلهما أصدق مثل على ذلك . . فإن دقة التعبير، وبراعة التصوير، وضربه على الوتر الحساس في دنيا الغزل والمرأة، حملت بعض نقاد الأدب القدامى، على القول بأن هذين البيتين أصدق غزل فاه به شاعر.

ولو تصفحت ديوانه، لوجدته طافحاً بهذا اللون الحلو من الشعر.

(٣) الفخر:

وتلك شنشنة درج عليها شعراء العربية خصوصاً في عصري الجاهلية والدولة الأموية، والفخر يكون بأصالة النسب وشرف المحتد وطيب الأرومة كما يكون بالكرم والبأس والرجولة والنجدة . . وغير ذلك.

ولم يك جرير ذا نسب متميز ـ كما عرفنا ذلك سلفاً ـ فإن طرق العيش وسبل الحياة التي سلكتها عشيرته ـ قد عكرت هذا النسب، فبات أبوه وضيعاً دنيئاً موصوفاً بالتقتير والشح وكزازة النفس. فشب جرير في بيئة واطئة، وقضى صباه سوقياً تَرْعِيَةً، خلي المجادة، خامل المعنى، مما ساعده على النبوغ، في الشعر، والسلاطة في اللسان، ولكن ما حيلته ـ وصاحباه يفتخران عليه بأثالة المحتد ونباهة الشأن ـ ما حيلته وعشيرته في استكانة وخمول؟.. لقد رأى أن انتسابه لكليب خزي وعار، فتخطاها إلى «يربوع» وافتخر بها كثيراً في شعره.. بل تخطى هذه إلى تميم، فقال مفتخراً:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمو غضابا

وما دام كذلك، فلماذا لا يتخطى تميماً إلى «مضر» ليهجو الأخطل متستراً وراء ظل الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان الذي هو من قريش وقريش من مضر:

إن الذي حرم المكارم (تغلباً)
جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبي، وأبو الملوك، فهل لكم
يا خُزْرَ[1] تغلب من أب كأبينا؟
هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئتُ ساقكمو إليَّ قطينا[2]

ويقال: إن عبدالملك لما بلغته هذه الأبيات، قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطيًّا.. أما أنه لو قال: «لو شاء ساقكم إلي قطينا» لسقتهم إليه.

(١) الخزر: ذوو العيون الضيقة الصغيرة، وهو وصف للعجم، كأنه أراد إخراج تغلب عن العرب.

(٢) الأغاني، ج٧ ص٥٩، والقطين: الرقيق. وقد قال عن عبدالملك بن مروان إنه ابن عمه لأن قريشاً وتميماً ترجعان لمضر. وهي قرابة بعيدة ولكن الشاعر أرادها قريبة.

(٤) الهجاء:

سبق القول بأن جريراً قد تفرع عن أسرة شاعرة، إذ كان بنو الخطفى يقرضون الشعر، وخاصة الهجاء. . فليس غريباً أن يكون أول شعر قاله جرير في الهجاء، فقد شب وهو يرى الخطفيين يهجون خصومهم السليطيين وقد مر شيء من هجو جرير لهم، ويعتبر ذلك البذرة الأولى في نشوء هذا الغرض الشعري لدى جرير. . وتعهد هذه البذرة بالري والرعاية ما جُبل عليه شاعرنا من حدة الخلق، وسلاطة اللسان، وصلابة العود، ووعوثة البادية.

وقد زاد هراشَهُ، تلك الغيرة التي اتقدت بها قلوب مناظريه، فشنوا عليه حرب الهجاء والتشنيع. . وثمة انطلق عنان جرير واسترسلت شفتاه بالشتائم المرة والأهاجي المقذعة، ولم يردعه عن ذلك عرف أو قانون أو يعوقه قيد أو تكبحه شكيمة، وانحط مستوى الهجاء إلى القذارة والقبح.

ومن هجائه المر، الذي لم يسبق إلى معناه قوله:

فغض الطرف إنك من «نمير» فلا «كعباً» بلغت ولا كلابا

ومن هجائه للفرزدق:

لقد ولدت أم الفرزدق مقرفاً
فجاءت بوزواز قصير القوادم
يوصل حبليه إذا جُن ليله
ليرقى إلى جاراته بالسلالم
تدليت تزني من ثمانين قامة
وقصرت عن باع العلا والمكارم
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا
مداخل رجس بالخبيثات عالم

لقد كان إخراج الفرزدق عنكمو
طهوراً لما بين المصلى و«واقم»[1]

وقد ظل جرير والفرزدق يتهاجيان نحواً من أربعين سنة. وفي نفس الفترة التحم جرير مع ما يقرب من ثمانين شاعراً، ومن هؤلاء الأخطل التغلبي والبعيث المجاشعي والراعي النميري وعدي بن الرقاع.

(٥) الرثاء:

امتاز جرير بإجادة هذا الغرض، وبوقوعه منه على الغاية، وما مراثيه سوى دمعات حرًّى وحسرات تتقطع بين الحشايا ووَقْدٍ يلتظي في المهجة.. ومن مراثيه قصيدته التي رثى بها خصمه «الفرزدق»، فلقد فُزِع جرير كثيراً لخبر موت الفرزدق وبكى عليه بمرارة حتى أخْضَلَ لحيته والقصيدة تدل على طيب طبعه وكرم خلقه ونبل ضميره وطهارة قلبه.. ومنها:

لعمري لئن كان المخبِّر صادقاً ... لقد عظمتْ بلوى تميم وجلّتِ
فلا حملت بعد الفرزدق حرة ... ولا ذات طفل من نفاس تعلّتِ
هو الوافد المحبو والحامل الشأى ... إذا النعل يوماً بالعشيرة زلتِ

وقصيدته التي رثى بها زوجته والتي مطلعها:

لولا الحياء لهاجني استعبارُ ... ولزرت قبرك والحبيب يُزار

وله مراثٍ أخرى في بعض الأمراء والأصدقاء والأحباب.

* * *

تلك أهم أغراضه الشعرية؛ وقد بدت فيها شخصيته الشعرية في أجلى

(١) واقم: حصن بالمدينة.

صورها . . ونريد الآن أن نوازن[1] ـ باقتضاب ـ بينه وبين خصميه اللدودين :

لقد لمعت في سماء العصر الأموي أنجم الشعراء الثلاثة : جرير، الفرزدق، الأخطل، فصاروا ملء الأسماع والأفواه، واتفق الناس على تقديمهم، ولكنهم تباينوا في المفاضلة بينهم . . ولابد قبل أي شيء أن نلم بالأخطل والفرزدق إلمامة موجزة في هذه السطور.

الأخطل :

تغلبي النسب، نصراني الدين، نشأ في الجزيرة[2]، بدأ شعره بهجاء كبار الشعراء، فأهملوه، واستغل خصومة قبيلته مع بعض القبائل، فشنها حرباً على هذه القبائل، وهجا الأنصار إجابة لطلب يزيد بن معاوية، وبالغ الأمويون في إجلاله، وأمعن هو في النفح عنهم فناضل ابن الزبير بعد الأنصار وهتك عن القبائل القيسية حجاب الشرف واحدة تلو الأخرى، وختم حياته بمهاجاة جرير ومناصرة الفرزدق . . وكان على شدة تدينه وثيق الصلة بخلفاء الأمويين . . وهجاؤه ـ في مجمله ـ عفيف اللفظ، لا يركن فيه إلى النبوِّ في اللفظ ولا إلى نشر المخزيات .

الفرزدق :

تميمي، نشأ في البصرة، وعرف بالتشيع، وقَرَض الشعر في أول أمره في هجاء قومه، ثم في هجاء الناس، فاستعدوا عليه والي العراق، ففر منه إلى البادية ثم إلى المدينة بعصمة واليها سعيد بن العاص ولما بلغه موت والي العراق عاد إلى وطنه، فشارك في أحداثه ووقائعه وفتنه، ثم مُني بمهاجاة جرير،

(١) اعتمدت في معظم هذه الموازنة على ما كتبه بعض النقاد المحدثين وخاصة الأستاذ أحمد حسن الزيات في (تاريخ الأدب العربي).

(٢) الجزيرة الفراتية بالعراق.

فشغلت فكره وظلت أكثر من أربعين عاماً كانت حديث المجتمع العربي آنذاك ومشغلة الأدب ورواده . .

وبعد :

فإن هؤلاء الثلاثة قد أفادوا اللغة والأدب بمهاجاتهم الشيءَ الكثير، حتى قال أحد النقاد، لولا النقائض لذهب ثلث اللغة .

ومذهبهم ـ عموماً ـ هو المذهب السائد في الهجاء؛ إلا أنهم يتباينون فيه تبعاً لمقتضيات الطبع والطبقة والبيئة الاجتماعية .

فلغة الأخطل هي لغة الخاصة، فهو لا يُسِفُّ في هجائه، وإذا أراد هجاء خصمه فيكفيه أن يسلبه صفات الرجولة كالكرم والشرف والبأس والصدق، ومن أفحش هجائه في بني يربوع ـ قوم جرير ـ قوله :

قوم إذا استنبح الضيفانُ كلبَهمو ... قالوا لأمهمو: بُولي على النار[1]

فتمنع البول شحاً أن تجود به ... ولا تجود به إلا بمقدار

والخبز كالعنبر الهندي عندهمو ... والقمح خمسون اردباً بدينار

فتجده في هجائه لا يمس الناحية الفردية، بل يعم القبيلة ويقايس بينها وبين تغلب في السبق إلى المحامد والسمو إلى المعالي . أما ذكر الصغائر وذكر المثالب الخاصة فليست من خلقه، فهو لا يريد النصر الرخيص .

وانظر قوله يخاطب جريراً :

يابن المراغة! إن عمَّيَّ اللذا ... قتلا الملوكَ وفككا الأغلالا[2]

وأخوهمو السفاح ظمأ خيله ... حتى وَرَدْن جبا «الكُلاب» نهالا[3]

---

(١) يعني أن هذا هو منتهى البخل . وذلك من وجوه كثيرة .

(٢) اللذا: أراد اللذان فحذف النون . وأحد عميه عصم بن النعمان قاتل شرحبيل بن عمرو، والآخر عمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند . ويقال عني بعميه كليباً والمهلهل .

(٣) جبا البير: ما حولها أو الحوض يجمع فيه الماء، والكُلاب: مورد ماء لبني تميم وقع عنده يوم الكُلاب الأول .

فانعق بضأنك يا جرير فإنما منّتك نفسك في الخلاء ضلالا
منّتك نفسك أن تكون كدارم[1] أو أن توازي «حاجباً» و«عقالا»

فهذا الشعر أقرب ما يكون للمنافرة والمفاخرة.. كما وأنه عفيف مترفع، وذلك طبعاً لا يستوي مع هجاء جرير.. ولم يكن هذا بالجاحد؛ فقد اعترف بقوة خصمه الذي لم يجابهه إلا وقد لعبت الشيخوخة في عمره، فقال: «أدركته وله ناب واحد ولو أدركته وله نابان لأكلني».

فمن هنا تتضح الفروق بين الشاعرين.

أما الفرزدق؛ فكان صريحاً في عداوته، داعراً في خلقه، فاحشاً في دعابته، حاداً في طبعه، ولذا شاع في هجائه ذكر العورات وألفاظ الخزي والتهتك.

وكانت قبيلته من ورائه تحميه وتشد من أزره.

وإمعاناً في السخر من خصمه والنيل منه، لم يتحرج من اختلاق الحوادث المضحكة، والقذف بأنواع السباب الدنيء الرخيص مما لم يعهده تاريخ الشعر العربي.

فرمي كُليب بضعة النسب ورعي الجمال وإتيان الأتن مما ورد في هجائه لجرير أمر هين، إذا وضعناه بجانب ما هو أشنع؛ فما بالك به وهو ينقض رثاء جرير لزوجته بقصيدة مفزعة يهجوها بها دون وازع من ضمير أو رادع من خلق.

ومع أن هجاءه قد خرج عن الحدود المألوفة، إلا أنه كثيراً ما يصيخ إلى داعي الدين، فيأخذ على نفسه عهداً بألا يقول بيتاً واحداً. ويقيد نفسه بحفظ القرآن.. أو يستجيب لنداء الشرف لحسبه، فيهجو عن نفسٍ أبية وطبع كريم

(١) دارم بن مالك بن حنظلة، وعقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع، وحاجب بن زرارة.

وخلق سمح، ولكن هذا اللون من الهجاء كان مع غير جرير.

وأما جرير؛ فكان الطامة الكبرى، وقد بلغ في الهجاء الفردي غاية الاقذاع وأكره الشعر على الأساليب العامية السافلة المبتذلة، ولم يستح عن هتك المحارم وذكر العورات مما اضطر خصومه إلى المقارعة بالمثل.

كان في هجائه يصطنع أساليب الدهماء.. فيقذف البعيث المجاشعي في أمه وهي أمة سجستانية.. ويعير الأخطل بالسكر والخنزير وعدم الختان، ويهاجم الفرزدق ويدعوه بابن القين كما تقدم، ويرمي أخته بابتذال بني منقر إياها، ويشهر بقومه حين قتل عمرو بن جرموز الزبير بن العوام وكان في جوارهم وهذا معنى قوله:

قُتِـل الـزبير وأنت عاقـد حبـوة ... تبـاً لحبـوتـك الـتي لم تحلل!
وافـاك غدرك بالـزبـير على مِنـىً ... ومجـر جعثنكم بذات الحـرمـل[1]
بات الـفـرزدق يستـجير لنفسـه ... وعجان (جعثن) كالطريق المُعْمَلِ

حقـاً.. لقـد كان يُعنى بتصيد الأخبـار وتعمد المعاني المناسبة وتلقط الحوادث الجارية، وذلك أحد عمادين قام عليهما هجاؤه للفرزدق، أما الثاني فتأثره بأساليب الرعاة والرعاع في سبابهم وفحشهم فاستخدمها بحذق مع أنه كان ضعيف العصبية.. فإذا افتخر الفرزدق ـ مثلاً ـ بآبائه لم يستطع جرير مجاراته، ولكنه يستطيع مغالبته بالسخرة اللاذعة وتصيد الأخبار والحوادث.

يقول الفرزدق:

حلل الـملوك لبـاسنـا في أهلنـا ... والسـابغـات إلى الـوغى نتسـربـل

فيجيبه جرير:

لا تذكـروا حلل الـمـلوك، فإنكم ... بعـد الـزبير كحـائض لم تغسـل

(١) جعثن: هي أخت الفرزدق.

ويقول الفرزدق:

أحـلامنـا تزن الـجبـال رزانـة وتـخـالـنـا جنـاً إذا ما نجـهـل

ثم يقول:

خالي الذي غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حبـاء جفـنـة ينـقـل

فيجيبه جرير بعد أبيات:

وافخـرْ بضبـة إنَّ أمـك منهمـو ليس ابن ضبـة بالمُعِم المخـولِ

ويقول الفرزدق:

وهب القصـائد لي النوابغ إذ مضوا وأبـو يزيد، وذو القـروح، وجـرول

وبعد أن يأتي على عدد من الشعراء يقول:

دفـعـوا إلـيَّ كتـابـهـنَّ وصية فورثـتـهـن كأنـهـن الـجـنـدل

فيرد عليه جرير:

أعـددتُ للشعـراء سمـاً ناقعـاً فسـقـيت آخـرهـم بكـأس الأول

لمـا وضعت على الفرزدق ميسمي وضَغَـا البعيث جدعت أنف الأخطل[1]

حسب الفرزدق أن يُسَبَّ (مجاشع) ويَعُـدَّ شعـرَ (مـرقش) و(مهلهـل)

ويضرب الفرزدق الروميّ في حضرة الخليفة، فينبو السيف فيقول جرير:

بسـيـف أبـي رغـوان سيـف مجـاشـع

ضربت ولم تضرب بسيف (ابن ظالم)[2]

فبهذه التصيدات والأساليب قوي لسان جرير فهاجا وناقض وهو يعلم أن نسبه لا يمده بالفخر ولا بالقوة.

وكان الفرزدق يمتقع لونه كلما وردتْ المربد (وهو سوق قريب من البصرة

(١) يقصد بالميسم القوافي.

(٢) ابن ظالم: هو الحارث بن ظالم كان من فُتّاك العرب أيام النعمان بن المنذر.

يشبه عكاظاً) قصيدة لجرير، فإن التهكم المرّ والهزءَ اللاذع والدعابة الفاحشة كل هذه من سمات جرير.

أنظر قوله يتهكم بالفرزدق، وقد هدَّد (مِرْبعاً) راويةَ جرير بالقتل:

زعم الفـرزدق أن سيقتـل مربعـاً أبـشـر بطول سلامـة يا مربـع!

وقوله في بني تغلب قبيلة الأخطل:

والـتـغـلبي إذا تنحنـح للقـرى حكَّ اسـتَـه وتـمثَّـل الأمـثـالا

وهكذا قارع جرير البعيث وغسان والأخطل والفرزدق والراعي النميري، بل قارع ثمانين شاعراً. وما استطاع واحد منهم أن يلجم لسانه أو يحد من شوكته.

وهكذا.. يبدو أبو حزرة طوداً شعريًّا راسخاً.

أثر الدين في شعره:

وقبل أن نترك جريراً إلى غيره، لا مندوحة من الاستشهاد بشيء على صحة ما قيل عنه بأنه تأثر كثيراً بأسلوب القرآن وقصصه وبهدي الرسول عليه السلام وبالمصطلحات الإسلامية:

فمن أمثلة تأثره بالقرآن قوله:

دعـا الحجـاج مثـل دعـاء نوح فأسمـع ذا المعـارج فاستجـابا

وقوله:

ضللت ضلال (السامري) وقومه دعـاهم فظلوا عاكفين على عجـل

ومن أمثلة تأثره بالرسول ومصطلحات الدين قوله:

ولقـد كسـرت سنـان كل منـافق ولـقـد منعت حقـائب الحجـاج

وقوله:

فعليك جزية معشر كي يشهدوا　　لله أن محمداً لرسول..

وقوله:

(يا ضبُّ) إن هوى القيون أضلكم　　كضلال أعور صاحب الدجال

وقوله:

ثقي بالله ليس له شريك　　وما عند الخليفة من نجاح

هذه حياة شاعر.. حياة «إمبراطور» الشعر الأموي حقاً.. وهي ـ كما تبدو من ثنايا السطور ـ حياة مليئة بالمتع الأدبية والطوائف الإخبارية، وزاخرة بالذوق الرفيع والفن الخالد.

وأقول: «إمبراطور» لأنه قد ظفر بشعراء عصره جميعاً.. ظفر بهم بلسانه وحسب.. فلا هو بالنسيب الحسيب حتى يجد في ذلك معدناً دهاقاً.. ولا هو ذو عشيرة قوية تحمي ظهره وتشد من أزره.. وإنما كان عبقريًّا وهبه الله قوة في الذكاء، وحدة في التفكير، مع براعة في الخيال، وقدرة على تصريف الكلام..

يقول أبو الفرج الأصبهاني(1): جاء رجل لجرير وسأله: من أشعر الناس؟ فقال: قم حتى أعرفك من هو أشعر الناس؟ ودخل به بيت أبيه «عطية بن الخطفى» وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها، فصاح به: أخرج يا أبتِ! فخرج شيخ دميم رث الهيئة قد سال لبن العنز على لحيته. فقال جرير: أتعرف هذا؟ قال الرجل: لا. قال: هذا أبي كان يشرب من ضرع العنز مخافة أن يسمع صوت الحلب إنسان فيطلب منه لبناً، وإنَّ أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعراً، وقارعهم به فغلبهم جميعاً.

أتراه ـ أيها القارئ ـ جديراً بهذا اللقب بعد ذلك؟!.

إنه لجدير به.. وجدُّ جدير..

---

(1) ج٧، ص٥٥.

وفي ساعة من ليل سكت هذا البلبل الغِردْ في سماء الشعر، صمتت قيثارته الشادية الشاجية.. وذلك بعد أربعين ليلة من وفاة خصمه الفرزدق.

وكانت وفاته في اليمامة في عام ١١٠هـ عن عمر يناهز الثمانين عاماً، ـ رحمه الله وغفر له ذنوب لسانه ـ.

ولقد انهمرت عليه دموع ابنه بلال، سحّةً سخيةً، ورثاه بعبرات شاعرية تقطر أسىً ولوعة.. فقال قصيدته الرائية التي جاء فيها:

إنــي رأيت جريراً يوم فارقــنـا
أبــكــى ربــيعــة واختــلت له مضــر
مات المحامي عن الأحساب قد علموا
والمحــرز السبق لما أُغلي الخــطر

* * *

هذا؛ وإثر جولة شعرية في ديوان جرير، في عام ١٣٧٥هـ تداعت عليَّ حينها بعض الخواطر والمشاعر، فقلت:

بُلْبــبُــلٌ شَافَــهَ الـزمــانَ وغِــرْدُ صَدْحُـهُ للخيال والفكـر شَهْـدُ
كم شدا بالجمـال والسحر والخلـ ـد، وأغـراه بالأنـاشـيد قَدُّ
ألـهـمتـه الحياة فنـاً رقيقـاً وسقته الكؤوسَ في الحب «نجدُ»
داعب الثغـر والخـدود بلحن خالـد الجـرس لا يضـاهيه ند
عزف الـفـن والأغـاريد سحـراً قد تمـلاَّه بين عينيـه يبـدو
أطـرب الكـونَ شعرهُ، فتهـادت منــه «شُمٌّ» وعُـطِّرت منـه «عِدّ»
منـه «سمْـع الزمان» أضحى شجياً كيف لا.. والـزمان للشدو عبد؟!
رقص الـدهـر عند نجـواه للحُـو ر الصبايا.. والحسن للفن قصد
فنـه للحـياة والـمـجـد عطر ورضــاب يشـفي الغـليلَ وورد

قارع الـصـيد والـفـحـول بيانـاً فسمـا واحتـواه في الشعـر مجـد

أيُّ فحـل تُراه هذا الـذي بزَّ (م) ثمـانين.. وهـو في الجمـع فرد

إيهِ (حَجْـرٌ)! يا روضة في مجاليـ ـهـا ثغـور الـطيور بالفن تشـدو!

روضـة للخـيال نبـع، ولـلإلـ ـهـام مغنى، وللبـلابـل مهـد!

في ربـاهـا تفـتـحـت زهـرات ومـعـانٍ من الـجـلال وجـوْدُ

زانـهـا الله بالـعـنـادل تشـدو ثمـلات، والـشعـر راحٌ وشهـدُ

سل حمى (المرْبدِ) العراقيّ عنهم ولـمـن أمَّـهُ الـرواةُ وشـدوا

ذاك قيثـارة الـخـلود (أبـو حز رة) مِن رَجْـعِـهِ الأمـالـيدُ غِرْدُ

يحيى بن طالب

بسالله نسا يجتكيا

إذا كان شُداة الأدب وهُواته يعرفون صناجة العرب الأول.. ويعرفون جريراً؛ فإن هناك من لم يلوح الكثيرون من الكتاب حتى بذكره، بل لم يشيروا إليه ولم يُلموا بطابعه الشعري.

هذا الشخص الذي أهمل مؤرخو الأدب ـ باستثناء النزر اليسير منهم ـ ترجمته وحياته الشعرية، والذي لم تُوله مدارسنا ـ سامحها الله ـ نصيباً من منهاجها الواسع، هو الشاعر اليمامي (يحيى بن طالب الحنفي).

وُلد هذا الشاعر في اليمامة في «قرقرى» ـ وهي المعروفة الآن باسم البطين، وهو سهل يمتد بمحاذاة سفح جبل اليمامة الغربي ـ ولعله، أي الشاعر، من قرية هناك تدعى (البرة) تردد اسمها كثيراً في شعره:

خليليَّ عوجا ـ بارك الله فيكما ـ
على (البرة) العليا صدور الركائب[1]

وذلك في القرن الثاني الهجري في ظروف كانت الثقافة العربية فيها قد امتزجت بالفارسية امتزاجاً تاماً من جل الوجوه.. إلا أن هذه الوحدة كانت ـ بادىء ذي بدء ـ لم تتجاوز حدود العراق وحواضر الرافدين بعد، فلم تغز البوادي ولم تمتد إلى قلب الجزيرة. أي أن مخالب اللحن ما زالت حائرة أمام أبوابها، كأنها قد أوجست خيفة من تلك القفار وفجاجها، فلم تتجاسر أن تلج تلك المفاوز الموحشة.

(١) والبرة برتان متجاورتان، عليا وسفلى، على ما ورد في كتب البلدانيات.

نشأ شاعرنا بين قومه من بني حنيفة[1] وبين القبائل المجاورة لها نشأة عربية محضة، فغلبت عليه لهجتهم وفصاحتهم وكان للبيئة أثر في مسلكه وسجيته، وقد أخذ يروض نفسه منذ اليفوعة على مكابدة النظم ومعالجة القريض وقول الشعر حتى نجح وقويت ملكته فيه، واشتد ساعده عليه، فصرفه في أغراض شتى بإجادة وإحكام، غير أن تفوقه إنما كان في الحنين والشوق إلى الموطن وفي الغزل والنسيب وبكاء الطلل والديار. . وكان يسود شعره مسحة من الظرافة واللباقة والصراحة والشهامة وطباع الفروسية، وهو ـ كما قال صاحب الأغاني[2] ـ من طبقة نويب (عبدالملك السلولي) اليمامي وبني حفصة وذويهم. .

كان يحيى ـ في مظهره ـ ذا هندام مستقيم وصورة حسنة، كما كان جواداً كريماً؛ وفارساً مغواراً، بل سيداً من سادات قومه، كثيراً ما يحمل عنهم الأعباء والمغارم والأثقال والديات، وكان مضيافاً يقري الضيف، ويجزل في إكرامه[3]. يشهد بذلك قوله:

وما أنا كالقول الذي قلت إن روى
محلي عن مالي حذارَ النوائب
بمنزلة بين الطريقين قابلت
بوادي (كحيل) كلما عنَّ راكب[4]
حللت على رأس اليفاع ولم أكن
كمن لاذ من خوف القرى بالحواجب[5]

(١) تقطن حنيفة ـ في أغلبيتها ـ على ضفاف الوادي المسمى بها وفيما يليه من أعلى مصادره في الأحيسي (الحيسية اليوم) وحتى منتهاه في الخرج. إلا أن شاعرنا ـ وقد ولد وعاش في قرقرى أي في المواطن الواقعة غرب جبل اليمامة (طويق) قد أمضى جل حياته بين القبائل القاطنة هناك من (قشير) و(تميم) وغيرهما.

(٢) الأغاني: ج٢٠ ص١٤٩.

(٣) الأمالي للقالي: ج١ ص١٢٣.

(٤) كحيل: وادٍ أو نخل حول بلدة قرّان (القرينة اليوم) في اقليم الشعيب باليمامة.

(٥) اليفاع: المكان المرتفع البارز، والحواجب: الأمكنة المحجوبة عن عين الرائين سواء كان الحاجب طبيعيًّا أو مصطنعاً. . كأن الشاعر يتحدى البخل والبخلاء.

فلا تسـأل الـضـيفـان من هم وأدنـهـم
هم النـاس من معـروف وجـه وجـانب
وقـولـوا ـ إذا ما نوّه الـقـوم بالـقـرى
ألا في سبـيل الله «يحـي بن طالـب»

لقد جمع هذه الخصال الحميدة في قلب كله حنان وشفقة؛ وإن شئت فقل؛ شعلة من الحياة العربية المثالية.

وهـو شاعـر مقل ـ كما يقول صاحب الأغاني[1] ـ، سهل اللفظ، طلي الأسلوب، جيد السبك، قليل التكلف أو التعمق في اختيار الألفاظ، بعيد عن القضايا المنطقية، فهو شاعر بالطبع، وقد تحمل آلام البين والفراق، ونظم في ذلك قصائد تدل على علو كعبه في الشعر. وطرق أبواب الغزل الرقيق، لأنه أحب امرأة من قومه ألهبت في نفسه عاطفة الحب والهيام بالجمال، فأجاد في تصوير حاله معها وإلفتهما. وقدر أن خرج مع والي اليمامة ـ من قبل الخليفة العباسي ـ إلى مكة المكرمة، فاشترى منه الوالي سرحاً من الإبل ـ والإبل أغلى ما يملكه العربي ـ فما كادا يصلان أرض الحرم ويقر قرارهما فيها، حتى جاء الخبر بإقالة الوالي من منصبه، فأخذ يماطل بيحي، ويحي صابر على ذلك حيناً من العمر، حتى كلَّ من التردد، وضاق ذرعاً من هذه الحالة، وتبرم بمداينة الولاة، وأخذ يدرأ الحسرة بالتشوق إلى الوطن ويسلو بذكر صاحبته التي كان يتحدث عنها.

إصغ إليه وهو يقول في هذا الصدد:

أقـول لمـوسـى والـدمـوع كأنـهـا
جداول ماء في مسـاربـهـا تجـري

(١) الأغاني: ج٢٠ ص١٤٩.

ألا هل لشيخ وابن ستين حجة
بكى طرباً نحو اليمامة من عذر؟!
إذا ارتحلت نحو اليمامة رُفْقَةٌ
دعاك الهوى واهتاج قلبك للذكر
فواحسرتي مما أحس من الأسى
ومن مضمر الشوق الدخيل إلى (حجر)
تَغَرَّبتُ عنها كارهاً وهجرتها
وكان فراقيها أمرَّ من الصبر
إذا ما أتيتَ (العرض) فاهتفْ بأهله:
سُقيتَ، على شحْط النوى، مُسْبِلَ القطر[1]
فإنك من وادٍ إليَّ محببٍ
وإن كنت لا تزداد إلا على عقر
كأن فؤادي كلما عنَّ ذكرها
جناحا غراب رام نهضاً إلى وكر

ومنها:

مداينة السلطان باب مذلة
وأشبه شيء بالقناعة والفقر![2]

وكان يحي في أول أمره ـ على ما قيل ـ ثرياً إلى حد أن سأله رفاقه لو ركب متن البحر وأشغل ماله في عمل مجد يعود عليه بالربح والخير، ولكن الصاحب

(١) شحط النوى: قلق البعد.

(٢) ويرى أبو علي القالي صاحب الأمالي أن الشاعر قال هذه الأبيات وهو يودع شخصاً من أهل اليمامة على ضفاف دجلة ينوي السفر إلى بلاده ـ وكان الشاعر حينها مقيماً في بغداد ـ وعندما ركب الرجل زورقه انهالت الدموع رقراقة من مآقي يحي.. ولعل هذا أدنى للصحة لأنه بعد أن فقد ثروته ألجأته مرارة الحال إلى التغرب صوب العراق وفارس طلباً للرزق والكسب.

لا يرى في ذلك شرفاً ـ شأن السواد الأعظم من العرب ـ وليس غريباً أن ينفض رأسه، ضارباً صفحاً عن هذا الرأي ومستنكراً لذلك الاقتراح، مفضلاً العيش الكدر في أرياف اليمامة على امتطاء الفُلك:

لشـربك بالأنـقـاء رنـقـاً وصـافـيـاً
أعـف وأعـفى من ركـوبـك في البـحـر
إذا أنـت لم تنـظر لنـفـسـك خالـياً
أحـاطت بـك الأحـزان من حيث لا تدري

ثم يشاء القضاء والقدر، أن يعلق شاعرنا دَيْنٌ أوهن قواه وشل فكره وحط من عزمه وكسف خاطره ـ وهو ذلك الشهم النبيل الجواد الفارس ـ وإذا به يسرع هائماً على وجهه، فاراً من غرمائه جالياً عن مغناه، تاركاً عشيرته خلفه ـ بعد أن اكتنز في سويداء قلبه حباً وولاء ـ فغادر اليمامة في حلك الدجى هارباً ولائذاً حيث انتهى به المطاف إلى حاضرة الخلافة (بغداد) ثم إلى (الري) إحدى الولايات الإسلامية بفارس.

وهناك تراقصت أمام عينيه الشجون والهموم، وتواترت عليه الذكريات تجرُّ أذيالها فأغرقته في بحور من التفكير والحيرة والسدم، وتوالت أكدار الأسى والكمد وسوارح البؤس والشقاء.. إلا أنه ـ مع ذلك ـ كان لا يفتأ أن ينال إجازة من الزمن المبرح يستنشق خلالها عبير الحياة وأريج النعيم، ويتأمل على شاشتها أطياف الأهل والخلان والربوع، ويعلن في ثناياها ما يخالج ضميره وما يبدو ماثلاً على باب شفتيه، ليجس نبض وجده أو ليشفي غليله:

أيا أثـلاتِ القـاعِ من بطن (تـوضـحٍ)
حنـيـنـي إلـى أطـلالـكـنَّ طويل
ويا أثـلاتِ الـقـاع قد ملَّ صحـبـتي
مسـيري.. فهـل في ظلكـنَّ مقـيل؟

ويا أثلاتِ القاع قلبي مُوكّل
بِكُنَّ.. وجدوى خيركنَّ قليل
ألا هل إلى شمِّ الخزامى ونظرةٍ
إلى (قرقرى) ـ قبل الممات ـ سبيل؟
فأشرب من ماء (الحجيلاء) شربةً
يُرَوَّى بها ـ قبل الرحيل ـ غليل
أحدِّثُ عنك النفس أن لست راجعاً
إليك لحزنٍ في الفؤاد دخيل
أريد رجوعاً نحوكم فيصدني
إذا رمته دين عليَّ ثقيل

أجل..

ما أعذب هذا الشعر.. وما أجمله وأرقه.. بل وما أصدق ما فيه من وجدان وإحساس وشوق..

أنه لمن أمتع الشعر حقاً..

لقد صدر من أعماق قلب صاحبه ونبع من سويداء مهجته، ولكن هذا الشعر كان ـ ويا للحسرة! ـ قرعاً في صفاة وصرخاً في وادٍ.

غير أن للشعر الجميل عشاقة وذُواقه؛ فقد غُنِّي بهذه الأبيات ذات ليلة أمام هارون الرشيد ـ في بغداد ـ فأعجب بها أيما إعجاب، وطرب لها أشد الطرب ـ وكيف لا يعجب ولا يطرب؟ ـ ثم سأل عن القائل فأخبر به، وقيل له إنه لا يزال على قيد الحياة، وأنه نزح إلى بلاد الري من أجل دين ركبه في بلاده.. فكتب الرشيد إلى عامله هنالك يأمره بأن يقضي دين الرجل ويعطيه نفقة رجوعه وينفذه إليه في أسرع بريد.. لكن سوء الحظ كان أسبق من كتاب الخليفة، وإرادة الله أنفذ من إرادة سواه.. فقبل برهة وجيزة من وصول الكتاب كانت

المنية في صراع مع الشاعر[1]، فلفظ أنفاسه في ذلك اليوم.

وفي آخر رمق، سأله رجل ممن حوله عن خبره وسلوته.. فأطرق هنيهة ثم كرر ما كان قد قاله.. فكان ذلك قوله:

فلا تسأل الضِّيفانَ من هم وأدنهمْ

همو الناس من معروف وجهٍ وجانبِ!

هي ذي سجية فتى عربي - ولا غرو! - عاش كريم اليد والنفس نديَّ الطبع والروح.

وهو ذا ابنك البار.. يا «قرقرى».

بل هو ذا الفردوس المفقود - من الأخلاق - والماضي الناصع في حلبات المجد.

هو ذا الذي كانت اليمامة وسائر بلاد العرب - تزخر به - بل وتفخر - فأنَّى هو اليوم.

ومات القائل[2]:

يا صاحبيَّ فدتْ نفسي نفوسكما

عوجا عليَّ صدور الأبغل السُّنَنِ

ثم ارفعا الطرف هل تبدو لنا ظعن

بـ (قرقرى) يا عناء النفس من ظعن

أحببْ بهنَّ لو أن الدار جامعة

وبالبلاد التي يسكنَّ من وطن

(1) الأغاني ج٢٠ ص١٤٩، الأمالي للقالي ج١ ص١٢٣.
(2) الأغاني ج٢٠ ص١٥٠.

طوالــع الحبــل من (تبــراك) مصعــدة
كمــا تتــابــع قيدام من الــسُّــفــن
يا ليت شعــري! ـ والإنســان ذو أمـل ـ
والـعين تذرف ـ أحيانــاً ـ من الحَــزَن!
هل أجــعــلن يدي للخــد مِرْفَــقَــةً
على (شَعَبْعَبَ) بين (الحــوض) و (العــطن)[1]

نعم؛ مات أديبنا وشاعرنا اليمامي في بلاد ما كان يحلم أيام نعومة أظفاره بأن الأقدار متغلبة على عقابتها من آمال الفتى وأمانيه، فتجرفه بتيارها وتسوقه إلى أرض نائية، العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان.

ناهيك بأسباب هذه الغربة ووقوعها في نفسه موقع السهم، ولكنه الدينار الخبيث يتحكم في مصائر العباد والبلاد، فيشتت الأول في أنحاء الآفاق وشتى الأصقاع، ويبعده عن الثاني.. مسقط رأسه وقرة عينه.

---

(١) تبراك مورد ماء لبني نمير يقع في حضن نفود قنيفذة في غرب اليمامة بوادي المروت ولا زال معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم. ويقع في منتصف الطريق تقريباً بين الرياض والقويعية. وقد ازدهر في عهدنا الحاضر فأصبح وما حوله من أكبر الواحات الزراعية في وسط الجزيرة تغمره الخضرة بأشجار النخيل وتغطيه حقول القمح الفسيحة وتقوم فيه مزارع الخضروات والفواكه ومراكز تربية الطيور الداجنة، وشعبعب: ماء لبني قشير بغرب اليمامة يرده السقاة والرعاة. ويقصد الشاعر بالحوض هنا حوض الماء المعد لشرب الإبل أو الغنم، والعطن هو المكان ترتاح فيه بعد الشرب، فيبقى الراعي ـ وسرحه يروح ويجيء بين الحوض والعطن ـ مُرفقاً يده إلى خده منتظراً إنتهاء سرحه من الراحة والارتواء.

بكر بن النَّطَّاح

٠٠٠ـ١٩٢هـ

وللفلاسفة

هو الفارس المقدام؛ الشاعر المفلق: بكر بن النطاح الحنفي اليمامي. . كنيته «أبو وائل». وقد اختلف الرواة والنسابون في نسبه، فقال قوم: إنه حنفي ـ وهو الأرجح ـ مستدلين بقوله:

فإن يك جد القوم (فهر بن مالك)
فجدي (لجيم) قرم (بكر بن وائل)

وقال آخرون: إنه عجلي؛ وحجتهم أن صحة البيت:

(فجدي عجل قرم بكر بن وائل).

نشأ شاعرنا في مسقط رأسه (اليمامة) في غضون العصر العباسي الأول، ثم بارحها إلى العراق، فعاش في كنف القادة والولاة، وتقلب في نعمهم وترفهم وكان ـ على ما قيل ـ فقيراً معدماً، بلغ من بؤسه: أنه أخذ يتربص بالمسافرين، ويترصد لهم في الطرق، فيسطو عليهم وينهب ما معهم من المال والميرة، فكان بهذا صعلوكاً من صعاليك عصره[1] وقد بقي على هذا حيناً، حتى شاء الله له أن يخرج من حمأة الرذيلة. وله في ذلك قصص لا يتسع المجال لسرد شيء منها.

وبعد أن أقلع عن التلصص والتصعلك وقطع السبل وسلب الغادين والرائحين، وثاب إلى مهيع الصواب، رحل إلى البصرة وبغداد. . وبقي هناك

(١) الصعاليك: جماعات من الشذاذ خرجوا على أعراف المجتمع والقبيلة، ألجأتهم الظروف القاسية إلى العيش بحد أسلحتهم أي على الصيد والقنص فإذا لم يتيسر لهم ذلك لجأوا إلى السلب والنهب وقطع الطرق حتى فقدوا حماية القبيلة فلم يستظلوا بعصبيتها. ومن أشهر الصعاليك العرب: قيس بن الحدادية وعروة بن الورد وتأبط شرا والشنفري والسليك بن السلكة.

زمناً غير قصير. . ثم اتصـل بأبي دلف العجلي[1] ـ القائد المشهور وعامل الرشيد على الجبل ـ ناحية عظيمة من بلاد فارس في عهدنا ـ فعينه في عسكره ـ أي في حرسه الخاص ـ، وخصص له قدراً مجزياً من خزينة الولاية. . فظل في الجيش سامعاً مطيعاً، يغزو في الحرب ويريح قناته في أيام السلم، إلى أن قال أبياتاً قومية ـ أوعلى الأصح قبلية تعصبية ـ يفخر فيها بربيعة ويقدمها على مضر ـ وقريش من مضر كما هو معلوم ـ فلما سمعها الرشيد هاج وماج وصب جام غضبه على الشاعر، وهمَّ بالفتك به لولا أن أسرع يزيد بن مزيد ـ وكان صديقاً صدوقاً لبكر ومن ربيعة أيضاً ـ فأسقط اسم بكر من ديوان الجند، وأوحى إليه بالأمـر، ونصحه بالفرار، فلما توفي الرشيد ظهر بكر من ملجئه، فألحقه يزيد بالجند، ورفع من رتبته.

قلنا إنه بطل فاتك مغوار، وكذلك كان ـ حضر يوماً عند أبي دلف وأنشده قصيدته البائية التي مطلعها :

هنيئـاً لإخـواني (ببغـداد) عيدهم　　　وعـيدي (بحلوان) قراع الكتـائب

وفي القصيدة فخر الشاعر بنفسه، وببسالته، واعتز بشخصيته، فعنَّ لأبي دلف أن يحـرج موقفه، فقال: يا أبا وائل. ما أكثر وصفك نفسك بالشجاعة وليس لها أثر فيك. فرد عليه (ابن النطاح) قائلاً: وأي غنى يكون عند الحاسر الأعزل المجرد من الأسباب. . ؟ فاستحسن الأمير جوابه، وأمر له بفرس ودرع

(١) وأبو دلف هو من بني عجل بن لجيم. فهو بهذا يمت بصلة القرابة إلى شاعرنا. وكان أبو دلف يقول الشعر أيضاً غير أنه كان مقلاً. . ومن شعره:

يومـاي: يوم في أوانس كالـدمـى　　　لهـوي، ويوم في قتـال (الـديلم)
هذا حليف غلائـل مكسـوة　　　مسـكـاً وصـافـية كنـضـح العـنـدم
ولـذلـك خالصـة الـدروع وضُمَّر　　　يكـسـونـنـا رهـج الـغـبـار الأقـتـم
ولـيومـهـن الـفـضـل لولا لذة　　　سبـقـت بطعـن الـديلمـي الـمـعـلم

والديلم: من أقاليم الهند على حدود فارس الشرقية، والعندم: نوع من العود إذا وضع على النار صار يندي زبداً صافياً طيِّب الرائحة، والضُمر: الخيل الضامرة المعدة لخوض المعارك.

وسلاح . . فأخذها وخرج في سبيله، فبينما هو يفتش عن فريسة، لقيه مال لأبي دلف فسطا عليه، ولما حاول بعض رجال القافلة منعه، عاجلهم بالطعن فأردى كل من منعه جريحاً، ثم جدَّ في مسيره ولم يقف إلا عندما أضناه السُّرى والإرقال، ولما بلغ النبأ مسمع أبي دلف لم يأسف بل اعترف بالجناية على نفسه، وقال لقد كنا في غنى عن هيجه، ـ أي عن إثارته ـ فكتب إليه وبرأه مما فعل، وأمره بالأوبة فوراً، فعاد ولزم أبا دلف، وصار من مقربيه وخواصه حتى فارق الدنيا.

بيد أن هذه الرواية تنبىء في مضمونها عما في داخل نفس ابن النطاح من سذاجة في الطبع وبساطة في تصور الأمور، فكيف تجوز عليه مثل هذه الأمور وهو الفارس الشجاع . . وقد تنبىء عن خبلٍ في الرأي أو هوج في تقدير العواقب.

* * *

أما شعره ـ وهو ما يعنينا بحثه هنا ـ فيتسم بإجادة المديح، ومتانة الفخر، وحلاوة الغزل، وبلاغة الوصف، ويجمع في شعره بين جزالة البداوة ورقة الحضارة، كما يلحظ فيه: تبذل الصعلوك البائس، وشكوى الموتور الدنف، وعربدة الماجن المتمرد، وتبرم الساخط الناقم، وقد صرفه في جل الأغراض المعروفة كالمدح والفخر والرثاء والنسيب . . إلخ.

كان بكر كثير الافتخار بقومه وعشيرته، ولهذا النوع من شعره وقع في قلوب السامعين ومكانة في نفوس الرواة، حتى أن «أبا الحسن» الراوية عندما سأله المأمون مرة أن ينشده أشجع بيت من نظم المحدثين، أنشده قول بكر:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه
ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وإنـا لنـلهـو بالـسـيوف كمـا لهـت
عروس بعـقـد أو سخـاب قرنـفـل[1]

وإن برأ شاعـرنا من لؤم الهجاء المقذع، فإنه لم يبرأ من كذب المديح وتملق الناس من ذوي الوجاهة؛ فالإطراء هو أهم ما صرف فيه شعره، وخاصة في ولي نعمته (أبي دلف)... من ذلك قوله فيه، وقد لحق بأكراد يقطعون السبل في ولايته، فطعن فارساً طعنة فنفذت الطعنة إلى فارس آخر رديفه فقتلهما[2]، فشاع الخبر بين الناس، فأنشد بكر في هذا المعنى بحضرة الأمير:

قالـوا: وينـظم فارسين بطعنـة يوم الـلقـاء، ولا يراه جليلا
لا تعـجبـوا لو أن طول قنـاتـه مِيلٌ إذن نظم الـفـوارسَ ميلا

فيعجب به الـوالي، ويأمر له بصلة جيدة، فيزداد ملق صاحبنا وولسه، فيصف مولاه أبدع وصف؛ مشيداً بكرمه وطول باعه في الندى، ومنوهاً ببسالته في لظى الهيجاء وقهره للأعداء:

له راحـة لو أن معـشـار جودهـا
على البـر، كان البـر أنـدى من البحـر

---

(١) ومن أبيات القصيدة أيضاً:

وإن ترنـا هزْلـى فأعـراضـنـا لنـا موفَّـرة ممـن يجـود ويبـخـل
وفينـا بحسن الصبـر منهـا أديمهـا فصـحَّـت لنـا الأعـراض والـقـوم هُزَّل
فإن تكـن الأيام فينـا تقـلَّبـت ببـؤسَـى ونُـعـمى والـحـوادث تفـعـل
فمـا لِيَّنـتْ منـا قنـاةً صليبـةً ولا عرضَـتـنـا للذي ليس يجـمـل
ولـكـن رحلنـاهـا نفـوسـاً كريمـة تُحـمَّـل ما لا تسـتـطيع فتـحـمـل
غضضنـا من الأبصـار من أن نمـدهـا إلـى مطمـع فيه على الـبـحـر مدخـل

وإن هذه القصيدة ـ كما يبدو من أنموذجها ـ لحرية بأن تُعد من عيون الشعر العربي، لما هي عليه من جزالة في اللفظ والعبارة، وجودة في السبك والأسلوب، وعمق في المعنى، ومن سمو وترفع في الغرض.

(٢) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ص١٢٥، ١٢٦.

ولــو أن خلق الله في جســم فارس
وبــارزه كان الــخــليّ من الــعــمــر

* * *

وجـرت عادتـه أن يفد كل عام على ولي نعمته، فينشده ما قاله فيه من الشعر، ثم يستمطره من فيضه متعللاً بأن في جوار ضيعته باليمامة أرضاً للبيع وليس في يده ثمنها، فيأمر له ممدوحه بقيمتها، فجاء عاماً، وذكر مثل ذلك فبرم به «أبو دلف» وقال: أما تفنى هذه الأرضون التي بجانب ضيعتك؟.. فضاق صدر بكر ـ وهو المتقلب المزاج الشديد الصلف ـ من هذا الرد الجاف الذي لم يتعوده من سيده، وملأ الوجوم أحشاءه.. فهبت شاعريته لتهون روعه وتهدئه:

يا نفس لا تجــزعــي من الــتــلف فإن في الله أعــظم الــخــلف
إن تقــنــعــي باليسير تُحــتــرمــي ويُغــنــكِ الله عن «أبــي دلــف»

وتدلنا هذه «الأقصوصة» على أن شاعرنا كان ظريفاً مدللاً ـ إن لم نقل جشعاً شرهاً، ملحافاً في سؤاله، أو محترفاً بتعبير اليوم، فهو يمدح بقدر ما ينال، ويشكر بقدر ما يصيبه من الغيث، ومتى زالت المزنة ولم تمطره أو ترش حماه، أظهر نفسه بمظهر من لا يسألون الناس إلحافاً، واصطنع التعفف عزاء وتسلية..

وكان معقل بن عيسى العجلي ـ أخو أبي دلف ـ حفياً بالتوفيق بين أخيه وبكر عندما تبلغ الجفوة بينهما مبلغ الشدة، فكان يفتح صدره للشفاعة للشاعر لدى أبي دلف ويهديء من غضبه، ولعل الهدف كان الإبقاء على صلة المديح قائمة وعامرة.

ولندع هذا وذاك، ولنبحث عن باب آخر، وهو الغزل ـ ذلك الفن الجميل من الشعر والذي هو فيه بمثابة الزهور المائسة في الروضة الغناء.. ولشاعرنا

فيه قصائد جيدة تدل على شعوره المرهف وعاطفته الملتهبة وحبه المتمكن، وعلى أنه شاعر غزِل حقاً، وعلى قدرته على اقتناص العبارات الحلوة وتصويره للمعاني تصويراً بَديعاً.

أمعن إليه النظر، وهو يقول في غادة غيداء تدعى (درة) تمكنت عاطفة الحب بينه وبينها، ثم فرق النوى شملهما، فكانت الريح ـ إذا هبت ـ تذكره بأيامه الخالية ـ عفواً بأيامه الحلوة اللذيذة ـ وتحمل إليه عبير أريجها وشذى عطرها، وبالتالي يصرعه الشجو وتنهمر عيناه بالدموع السجام:

أهل دار بين (الرصافة) و (الجسر) أطـالـوا غيظي بطول الـصـدود
عذبـونـي ببـعـدهـم وابـتلوا قلبـ ـبـي بجـيشـين: طارفٍ وتـلـيـد
مـا تهـب الـشـمـال إلا تنـفـسـ ـت وقـال الـفـؤاد للعين: جودي
قلَّ عنهم صبـري ولم يرحمـوني فتـحـيـرت كالـطريـد الـشـريـد
وكـلتـني الأيام فيك إلـى نفسـ ـي فأعـييت وانـتـهـى مجهـودي

ثم يحلق شاعرنا المبدع بخياله، فيتصور محبوبته هذه أنها الجمال المجسم، وأن كل ما يشاهد في حياته من حسن ورُواء فهو من جمالها، الذي يضيء هذه الأجواء الدامسة بسناه الدافق، وينشر عليها أنواره، فلا يأسف ساعة أفول أخت (يوشع) لأن إشراق وجه (درة) المحجوب، والذي سترفع عنه الحجاب بعد أن يرخي الليل سدوله، يضيء الكون:

يا (درُّ) حالـفـك الـزمـان فمـا له
في وجـه إنـسـان سواك نصـيب
كل الـوجـوه تشـابـهـت فبـهـرتـهـا
حسنـاً.. فوجهـكِ في الـوجـوه غريب
والشمس يغـرب في الحجـاب ضياؤهـا
عنـا ويشـرق وجـهـكِ الـمـحـجـوب

أسلوب طلي، وعبارة جلية؛ ولفظ رشيق، وتشبيه بليغ، واستعارة لها روعتها.. ثم مودة وولاء ينبعثان من صميم فؤاده وعمق مهجته، لا يشوبهما أي تصنع أو تكلف. نعم، لقد تصور أنها الدنيا، وأن الدنيا هي، وأخذ يظن أن لسانها ينطق أبداً ويتساءل عن مصدر هذا الشحوب الذي علا وجهه:

قالت «عنان» ـ وأبصرتني شاحباً ـ يا بكر مالك قد علاك شحوب

فيرسلها زفرة آنَّة: أن أحداً لم يذق ما ذقت إلا نبي الله أيوب:

فأجبتها: يا أخت لم يلق الذي لا قيتُ إلا الممبتلى (أيوب)

ولكن ـ يا تُرى ـ أتحسبه صادقاً في قوله.. أما أنا فلا أعتقد ذلك مهما بلغت الصبابة من قلبه، وإن لم أذق ما ذاق من ألم الجوى ـ والحمدلله ـ.

غير أن الشعر ـ كما يقول متذوقوه ـ لا يحلو إلا بالخيال والمبالغات والاستعارات والتشبيهات، وأن أعذبه أكذبه وأحلاه أغربه.

ويعود هذا الدنف إلى استعراض ماضيه. فيذكر أنه كان يسمع بالهوى فيظن ذلك لا يعدو مجرد لذة وترويح، حتى وقع في شِرْكه، فذاق حلوه ومره، وعرف عنه كل شيء، عرف أنه كالنار للقلوب الجامدة، وهذا هو الحلو ـ في رأيه ـ أما المر فأعياه البيان عن وصفه:

قد كنت أسمع بالهوى فأظنه شيئاً يلذ لأهله ويطيب

حتى ابتليت بحلوه وبمره فالحلو منه للقلوب مذيب

والمر يعجز منطقي عن وصفه للمر وصف يا عنان عجيب

وللرثاء في ديوان (ابن النطاح) حيز كبير، ذلك لأنه قد فُجع بنخبة من أصفيائه، فسكب عليهم عبرات خالدة. فمن هذه الكوارث التي حطمت قواه، وألبسته ثياب الأسى والكمد، نبأ وفاة معقل بن عيسى ـ وطالما أنقذه من مآزق، وخلصه من نطع الحمام ـ فكانت دمعة صاحبنا عليه غزيرة سخينة ـ هذا طرف منها:

وحـدث عنـه بعض من قال انـه
رأت عينـه فيمـا ترى عين نائـم
كأن الـنـدى يبكي على قبـر (معقـل)
ولـم يره يبـكـي على قبـر (حـاتـم)
ولا قبـر (كـعـب) إذ يجـود بنـفـسـه
ولا قبـر حلف الجـود (قيس بن عاصم)
فأيقـنـت أن الله فضّـل معـقـلاً
على كل مذكـور بفـضـل الـمكـارم

لِمَ كل هذا أيها الراثي..؟ ألأنه أمطرك بسجل من حبائه..؟ ذلك ما أظنه، وما زال الشعراء في كل وادٍ من أودية الكلام يهيمون، ويفضلون من أجزل لهم الفضل، وإن لم يكن فاضلاً.. وإلا فأين قيس بن عاصم من معقل هذا؟؟ أين الثريا من الثرى؟ ولم تمهل الأيام شاعرنا إلا قليلاً، حتى جاء نعي مالك الخزاعي ـ والي طريق خراسان ـ وكان بكر قد قصده بعد وفاة (أبي دلف) فأحسن وفادته فرثاه بكر بقصيدة منها:

طاب ثرى «حـلوان»[1] إذ ضمـنت عظامـه.. سقـياً لهـا من عظـام
أغـلقـت الـخـيـرات أبـوابـهـا وامـتـنـعـت بعـدك يابن الكـرام
كان لأهـل الأرض في كفـه غنىً عن البحـر وصـوب الغمـام
وكـان في الصبح كشمس الضحى وكـان في الـليل كبـدر الـظلام

هذه نمـاذج[2] من شعر ابن النطاح الذي عاش في عصر يموج بالمادة والتـرف.. عصر نَفَق فيه سوق الشعر كثيراً، وتصدر أربابه مجالس الخلفاء

---

(١) حلوان بأرض فارس.

(٢) لقد قيض الله لهذا الشاعر أخيراً من قام بجمع أشعاره من بطون الكتب، وهو الدكتور حاتم صالح الضـامن، فقـدَّم بعمله هذا خدمـة جليلة للتـراث العـربي الشعـري، وإن كان قد أخـل ببعض المقطوعات، لكن عمله يظل مشكوراً من الباحثين والدارسين.

والولاة بما أسبغوا عليهم من المديح والإطراء، ونالوا من رفدهم ما فتح لهاهم، فقالوا ما قالوا إن حقاً وإن كذباً.

وبعد، فلئن كان شاعرنا كما قال عن نفسه:

أنـا الشـاعـر المملي على (ألف) شاعـر
فيسـبـق إمـلائـي سريعَ قرآتـي[1]

لئن صح هذا، أو قريب منه ـ ولا نظنه كذلك ـ فإن شاعرنا، ولا ريب، يُعد من أكثر شعراء العربية نتاجاً.

ومع أن شعر ابن النطاح كان جزل اللفظ، رصين العبارة، متين السبك، حفياً بالأسلوب البلاغي، ندياً بالمعاني الجميلة، فإنه لم يخل من الركاكة ومن بعض صور الصنعة أحياناً. . بل لعل بعض هذا الشعر أقرب إلى النظم منه إلى الشعر كما في القصيدة التائية التي مستهلها:

ولـيلة جمـعٍ لم أبـت ناسـياً لهـا
وحـين أفـاض الـنـاس من عرفـات

* * *

وفي ذلك العصر، انتقل هذا الشاعر الفذ إلى عالمه الآخر، بعد أن صافح عالمه الأدنى مودعاً في عام ١٩٢هـ (٨٠٨م) وقد رثاه صديقه أبو العتاهية بقوله:

مات ابـن نطاح أبـو وائـل بكـر فأمسى الشعـر قد ماتـا[2]

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٢٥.

(٢) الأعلام: ج٢ ص٤٦، البداية والنهاية لابن كثير: ج١٠ ص٢٠٨.

يحـي ابـن أبـي حفصـة

٠٠٠ ـ ١٣٠هـ تقريباً

أبوه يزيد المكنَّى بأبي حفصة. وأمه جارية حرة مولاة لبني عامر من حنيفة[1]. ويقال إنها (لحناء بنت ميمون) من ذرية الشاعر النابغة الجعدي.

ومن هنا قال محمد بن إدريس الحفصي صاحب المؤلَّف المفقود عن اليمامة[2]، وأحد أحفاد الشاعر: «إن الشعر أتى آل أبي حفصة بذلك السبب».

كأنما الشعر إرث يأتي كابراً عن كابر!.

آل أبي حفصة:

وآل أبي حفصة أسرة يمامية. وبالرغم من أن الروايات متضاربة حول أصل هذه الأسرة ـ كما سيأتي إيضاحه ـ إلا أنهم قد استوطنوا اليمامة، وتملكوا فيها، وكثر عديدهم، حتى صاروا من أهلها، بل من وجهائها، وقد خالطوا عرب اليمامة وصاهروا بعض قبائلها.

وكان آل أبي حفصة أثيرين لدى الخلفاء الأمويين، وخاصة لدى آل مروان، حيث أن جد الحفصيين الأعلى (يزيد) قد أنقذ مروان بن الحكم في وقعة يوم الدار ـ يوم دخل المهاجمون على عثمان بن عفان رضي الله عنه في

---

(١) الأغاني: ج٩ ص٣٥.

(٢) لمحمد بن إدريس بن سليمان بن يحي (الشاعر) بن يزيد (أبي حفصة) مؤلَّف عن اليمامة، لم يصل إلينا، ولعله قد فُقد كسواه من كتب التراث الكثيرة، لكن ياقوتاً الحموي صاحب (معجم البلدان) قد أطلع عليه وأكثر من النقل منه. ويُرجِّع العلامة الشيخ حمد الجاسر أن اسم الكتاب هو (مناهل اليمامة) (مجلة العرب: الجزء التاسع، ربيع الأول ١٣٨٧هـ).

داره وقتلوه ـ من موت كاد يكون محققاً، فحفظ المروانيون لأبي حفصة هذا الصنيع، وقربوهم إليهم، وخصوهم ببعض المناصب في الدولة، وأقطعوهم بعض الضياع والأراضي ولاسيما في اليمامة.

كما شهد يزيد أبو حفصة أيضاً مع مروان موقعة الجمل الشهيرة ـ أثناء الفتنة الكبرى ـ وقد قاتل أبو حفصة قتال المستميت، فلما انتصر عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ لجأ مروان ـ ومعه أبو حفصة ـ إلى مالك بن مِسْمَع[1]، وقال لمالك: «أغلق باب دارك». فرد مالك: «إن لم أمنعك والباب مفتوح لم أمنعك والباب موصد».

وقد طلب عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ مروان من مالك، لكنّ مالكاً لم يسلم مروان إلا برهينة خوفاً على حياة المستجير به، وكان له ذلك. ثم دفع مالك الرهينة إلى أبي حفصة.. وسار مروان إلى عليٍّ بعد أن أوصى أبا حفصة قائلاً: «إن حدثَ حَدَث فعليك بالرهينة» لكن عليًّا ـ رضي الله عنه ـ استقبل مروان هاشًّا باشاً، ومنحه كسوةً لائقة، وقد أعطاها مروان حَفيَّهُ أبا حفصة الذي لبسها من حينه. ويبدو أن هذا الأمر قد أغضب عليًّا، فقال قولته الشهيرة: «كسوته كسوةً فكساها مولاه».

هذه لمحة مقتضبة، عن مبدأ أمر آل أبي حفصة وشهرتهم في تاريخ الدولة الأموية.. بل في تاريخ اليمامة السياسي والأدبي.

نُسبة آل أبي حفصة:

وقد تباينت الروايات والأقوال حول أصل أسرة الحفصيين؛ فقبيلة (عُكل) اليمامية ـ مثلاً ـ تقول إن أبا حفصة منهم وإنه من كنانة بن عوف؛ فهو مضري، وإن أبا حفصة قد بيع من بعض أهله بسبب مجاعة لحقت بهم.

(١) هو مالك بن مسمع بن شيبان سيد ربيعة وأحد سادات العرب. وكان ذا مهابة ومكانة.

وهناك رأي ثانٍ يقو: إنه من أصل فارسي ولكنه عاش بين ربوع بني عُكل.

ورأي ثالث غريب يزعم بأنه من نسل السموأل بن عاديا (الغساني نسباً، واليهودي ديانة)..

وقيل.. وقيل..

لكن الثابت أن آل أبي حفصة ـ وقد عاشوا باليمامة ـ قد خالطوا أهلها، بل وتزاوجوا مع قبائلها، ولاسيما مع تميم، فهم ـ على هذا الاعتبار ـ عرب أقحاح ومن صميم هذه الربوع.

ما علينا.. فإن ما يهمنا هنا هو ما رصدنا له موضوع دراستنا هذه، وهو الجانب الشعري، فأسرة آل أبي حفصة أسرة شاعرية ـ على مدى أكثر من قرنين ـ بدءاً برأسهم يزيد بن أبي حفصة وانتهاءً بمتوَّجٍ الحفصي.. وإن كان هذا الأخير هو أضعف هذه الأسرة شعراً[1].

يحي ابن أبي حفصة:

ويحي ابن أبي حفصة، صاحب هذه الترجمة، واحد ـ إذن ـ من هذه الشجرة الشاعرية، وهو جد الشاعر مروان بن سليمان الذي ستأتي ترجمته. وكان معاصراً للشاعر الفحل جرير بن عطية، بل كان على صلة وثيقة به، وللشاعر نويب السلولي.

وقد اشتهر بالجود والكرم، وبحسن الجوار والمعشر.. وقد أشاد به جرير في شعره.

ذلك أن جريراً عزم مرة على بعث ابنه بلال إلى ديار الشام لبعض حاجته،

(١) الأغاني ج١١ ص٢، وبحث بعنوان (الحفصي وكتابه عن اليمامة) للأستاذ حمد الجاسر نشر في مجلة العرب (صفر، وربيع الأول ١٣٨٧هـ).

فأودعه يحي ليكون في رفقته، وقد كان يحي يزمع السفر إلى هناك أيضاً.. لكن بلالاً علم أن أحد بني أمية ينوي السفر هو الآخر للشام، واقترح على أبيه أن يأذن له بصحبة هذا الأموي، إلا أن جريراً لم يستجب لرغبة ابنه، بل قال له:

أزاداً سوى (يحـي) تريد وصـاحـبـاً
ألا إن يحـي نعـم زاد الـمـسـافـر
ومـا تأمـن الـوجـنـاء وقـعـة سيفـه
إذا أنْـفَـضُـوا أو قلّ ما في الـغـرائـر[1]

وقـد صاهر يحي بني أنف الناقة، من تميم، إلا أن هذه المصاهرة قد أحدثت لغطاً واستياء بين بعض أحياء العرب باليمامة، بسبب ما قيل عن أصل آل أبي حفصة.

ولهذا قال عصام بن عبيد الزِّماني، من أهل اليمامة، وكان معاصراً ليحي:

أرى (حـجـراً) تغيَّر واقـشـعـرا وبُـدِّل بعـد حلو الـغـيث مُرَّا
وبُـدِّل بعـد ساكـنـه الـمـوالي كفـى (حـجـراً) بذاك ليوم شرا

إلا أن يحي رد على ذلك بأبيات منها:

ألا من مبـلغ عني (عـصـامـاً) بأنـي سوف أنـقض ما أمـرَّا

كمـا صاهـر يحي بن أبي حفصة وبنـوه مقـاتـل بن طلبة بن قيس بن عاصم[2]، من بني منقـر، من تميم أيضـاً، فأثار ذلك حفيظة شاعر آخر هو

---

(١) الغرائر: جمع غِرارة وهي وعاء من صوف أو شعر يضع به المسافر مؤونته، وأنفضوا: نفد زادهم، الوجناء: الناقة الشديدة.

(٢) وقيس بن عاصم هو سيد تميم، رأسَ وفد قومه إلى النبي ﷺ وقال عنه: هذا سيد أهل الوبر. وكان من حلماء العرب المشهورين.

القلاح بن حزن المنقري، الذي قال أبياتاً يترحم فيها على قيس بن عاصم الراقد في جدثه والغائب عن هذه الأحداث. . وجاء فيها:

سلام على أوصال قيس بن عاصم
وإن كنّ رَمْساً في التراب بواليا
أضيعتمو خيلاً عِراباً فأصبحت
كواسدَ، لا ينكحنَ إلا المواليا؟!

ولم يسكت يحي على ذلك، فردَّ أقسى رد:

ألا قبَّح الله (القلاح) ونسوةً
على البئر يُعْطِسْنَ الكلاب من النتْنِ
نكحنا بناتِ القرمِ (قيسِ بن عاصم)
وعمداً رغبنا عن بنات (بني حزن)
أباً كان خيراً من أبيك أرومةً
وأوسط في (سعد) وأرجح في الوزن
لبيت (بني حزن) من الذل وَهْنَةٌ
كوهنة بيت العنكبوت الذي تبني
ولم تر (حزنياً) ولو ضم أربعاً
وأبرز في فرج يعف ولا بطن
وضيف (بني حزن) يجوع، وجارهم
إذا أمن الجيران ناءٍ من الأمن

لقد كال الصاع صاعين ـ كما يقولون ـ وألجم بشعره هذا فم القلاح بن حزن. وقد هدأت الرياح العاصفة بعد أن صمد لها يحي بقوله وفعله.

ومن جيد شعر يحي قوله ـ مشيراً إلى خروج يزيد بن المهلب بن أبي صفرة

الأزدي[1] على بيعة الخلافة، ومتأسفاً على أيام الحجاج بن يوسف وحزمه وصرامته.. ولو كان الحجاج حياً لما استطاع مثل يزيد أن يرفع رأسه أو أن يكسر هيبة الدولة فيثور عليها:

لا يصلح الناسَ إلا السيفُ إذ فُتنوا
لهفي عليك.. ولا حجاجَ للدين
لو كان حياً غداة الأزد إذ نكثوا
لم يُحصِ قتلاهم حُسَّاب ديرين
لم تأته الأزد عند الباب تربُصُه
مثلَ الجراد تنزى في التبابين
من كل أفحجَ ذي حُنْفٍ مخالفة
أرفتْ به السُّفْن علجاً غير مختون

وقوله في والي اليمامة سفيان بن عمرو:

لقد عصاني ابن عمرو إذ نصحت له
ولو أطقت لما زلت به القدم
لو كنت أنفخ في فحم لقد وَقَدَتْ
ناري، ولكن رمادي ماله حمم

ولما قُتل الخليفة الوليد بن يزيد، كان علي بن المهاجر الكلابي والياً على اليمامة، فثار عليه أحد زعمائها، وهو المهير بن سُلْمي الحنفي، وخيَّره بين الاعتزال أو الرحيل أو البقاء في قصره.. لكن الوالي رفض كل ذلك ولم يصغ

(١) أحد قادة الدولة الأموية. ولي خراسان بعد وفاة أبيه، وعزله عبدالملك بن مروان وحبسه، فهرب يزيد إلى الشام، ولما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبدالملك ولاه العراق ثم خراسان، وفتح جرجان وطبرستان، ثم تولى إمارة البصرة، ولما استخلف عمر بن عبدالعزيز عزله وجيء به إلى دمشق ثم حبس. وبعد وفاة عمر وثب غلمان يزيد فأخرجوه من الحبس، فهرب وتغلب على البصرة ونشبت بينه وبين القائد الأموي مسلمة بن عبدالملك حروب مريعة انتهت بمقتل يزيد وتشتت أنصاره من الأزد.

لنصائح الناصحين، ومنهم يحي ابن أبي حفصة، فهاجم المهير الوالي الذي ما عتّم أن هرب إلى خارج اليمامة، وأصبح المهير سيدها المطلق.

وحول ذلك يقول يحي:

بذلتُ نصيحتي لبني كلاب فلم تقبل مشاورتي ونصحي
فِدًا لبني (حنيفة) مَنْ سواهم؟ فإنهمُ فوارس كل فتح

ويبدو من هذه النماذج الشعرية ـ على قلتها ـ أن يحي ابن أبي حفصة شاعر قوي العارضة، متين العبارة، جزل الأسلوب، واضح المعنى، قليل الأخذ بالألفاظ الحوشية والقلقة، لا يعتور شعره تصنع في الغرض أو تكلف في السليقة.. ويمكن اعتباره، على ضوء هذه النماذج، من مجيدي الشعر.

ومع أن أبا الفرج الأصبهاني يذكر ـ في أغانيه ـ أن ليحي ابن أبي حفصة أشعاراً كثيرة، إلا أن القليل من هذه الأشعار هو الذي عُنيت بتدوينه كتب الأدب.

أما أكثر شعر الشاعر فقد عَدَتْ عليه عوادي الدهر، وضاع في مسارب الإهمال والعبث، ولم يصل إلينا إلا القدر اليسير. شأنه شأن الكثير من مأثورات التراث الفكري العربي في مجالات الشعر والأدب والتاريخ والتراجم والبلدانيات وعلوم اللغة وسواها.

توفي يحي في حدود سنة ١٣٠هـ.

مـروان ابـن أبـي حفصـة

(١٠٥ - ١٨١هـ)

أبـو السمط مروان بن سليمان بن يحي (الذي سبقت ترجمته) بن أبي حفصة. . شاعر يمامي مشهور ومن مبرزي المولدين. .

كان جده الأعلى (أبو حفصة) مولي لمروان بن الحكم ـ على قول بعض الروايات ـ فأعتقه يوم الدار في قصة مشهورة. . وإلى هذا يشير شاعرنا ـ مروان ـ في قول ينسب إليه مادحاً بني أمية من آل مروان:

بنـو مروان قومـي أعـتـقـونـي وكـل النـاس ـ بعـدُ ـ لهم عبيد

وقد انتقل جده الأدنى (يحي) ـ وكان شاعراً أيضاً ـ مع أسرته إلى (اليمامة) عندما أسند إليه «مروان بن الحكم» ولاية بيت المال فيها، فبقي «آل حفصة» في بلاد اليمـامـة منـذ ذلـك التـاريخ، واتخذوها وطناً. . وتملكوا فيها وكثر عديدهم حتى صاروا من أهلها[1]. . فولد مروان بن أبي حفصة فيها، وقضى ميعة صباه بين شعابها وأوديتها ووهادها وهضابها.

الفتى الشاعـر:

ولما شب عن الطوق، تحركت فيه عروق شاعرية موروثة ـ إذ كان جل الحفصيين شعراء ـ فبدأ يقرض المقطعات ويعالج القصائد، وأصبح شاعراً غزير المادة، عميق البحر، إلا أن الكلفة تبدو على شعره، وإن سترها أحياناً بمعانيه المبتكرة وخياله المبدع.

---

(١) الأغاني: ج٩ ص٣٤.

وقد قال الشعر ـ أول ما قاله ـ في مدح مروان بن محمد (الملقب بالحمار) فأغدق عليه من فيضه الشيء الكثير مما ألهب شاعرية أبي السمط، وجعله يدبج درر البيان في مدحه، فتألفت من ذلك بواكير شعره. . وصار مروان بن أبي حفصة ـ بهذا الاعتبار ـ لسان حال الأمويين، والمدافع عن وجهات نظرهم تجاه خصومهم العلويين وأشياعهم.

الأموي العباسي:

ولكن مصدر تشيعه للأمويين لم يكن ـ فيما يظهر ـ غير المادة. . فسرعان ما تخلى عن «أمويته» وطوى صفحة ولائهم، وصار لسان بني العباس عندما صفا لهم جو الحكم والسيادة وبعدما تسلموا مقاليده.

نعم: لم يثبت على شأنه الأول. . فقد أحل العباسيين محل الأمويين، وخصهم بأماديحه. . فنزف من أجل ذلك دائرة معارفه الفكرية، وأوقف خياله الخصب على إطرائهم والإشادة بمآثرهم ـ إن صدقاً وإن ميناً! ـ ولقد كان له في ذلك ـ بالطبع ـ مصدر ثراء. . بيد أن غناه كان مقروناً بالبخل والتقتير، حتى لصقت به سمة البخل، وأصبح الناس يضربون به المثل في البؤس والشح والحرمان، وله في ذلك طرائف غريبة.

في حومة المديح:

في أول عهد المهدي، غادر أبو السمط اليمامة ـ كما كان يبارحها في زمن بني أمية لعرض أشعاره وأماديحه عليهم ـ فقدم بغداد ومدح الخليفة بقصائد رنانة تُعد دُرة في تاج الأدب وغرةً في جبين القريض. . ففاز ـ إلى جانب الرضا والإعجاب ـ بالهبات والأعطيات.

وقد شغل المديح الشطر الأكبر من الديوان، فقد عاصر مروان عدداً كبيراً من خلفاء الدولتين وولاتهم، فمدح من الأمويين (مروان بن محمد الحمار) كما قلنا ـ كما مدح من بعد ذلك المهدي والرشيد وغيرهما من العباسيين، فنثر عليهم أكاليل من المدح وباقات من الثناء، حتى أن أحدهم ـ وأظنه المهدي ـ آلى على نفسه ليعطينه مائة درهم عن كل بيت يمدحه به.

وكما مدح العباسيين مدح وزراءهم البرامكة، واتصل بمعن بن زائدة الشيباني، وخصه بكثير من قصائده الغر التي فَضُل بها شعراء زمنه.

وفي اعتقادي أن أعظم ناحية برز فيها شاعرنا كانت في اتصاله بمعن.

وفي الرثاء: كم دمعةٍ حرَّى جادت بها مقلتاه لفقد عزيز أو كريم. فسكبها في قالب مبدع، وصهرها في «بوتقة» حزينة مؤثرة.. وكيف لا وقد فجع في نخبة من أخدانه وأولياء نعمته، الذين لم يرجعوه يوماً ما، ناكصاً على قدميه يجر ذيل خيبته وفشله؟.

تحكيم.. وذاتية:

وفوق ذلك كله، فقد كان بصيراً بنقد الشعر، خبيراً بأسراره، ذا ذوق راق، وإدراك سليم. ومن ذلك انه لما سئل عن الشعراء الثلاثة (جرير والفرزدق والأخطل).

أيهم أشعر؟.

أجاب بقوله:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما ... حلو القريض ومره لجرير

ولقد هجا فأمض أخطل تغلب | وحوى اللُّهى ببيانه المشهور[1]
كل الثلاثة قد أجاد فمدحه | وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جريتُ مع الجياد فَفُتُّها | بعنانٍ لا شَبِمٍ ولا مبهور
ما نالت الشعراء من مستخلَف | ما نلتُ من جاهٍ وأخذ بدور[2]
عزّتْ معاً عند الملوك مقالتي | ما قال حيهم مع المقبور
ولقد حُبيتُ بألف ألف لم تُشب | إلا بسيب خليفة وأمير[3]
إني لآنف أن أحبِّر مدحةً | ألا لصاحب منبر وسرير
ما ضرني حسد اللئام ولم يزل | ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

هكذا حكم . . وهكذا لم يشأ أن يقدم على نفسه ـ أخيراً ـ أحداً .

مع يونس بن حبيب :

قلنا : إن مروان كان ـ في رأي الكثير من مؤرخي الأدب العربي ـ أمير شعراء عصره . ولتعزيز هذا الرأي ، نورد هذه القصة كشهادة من رجل له خطره البالغ في عالمي اللغة والأدب .

ذلك أن مروان بن أبي حفصة ، حضر ذات يوم إلى حلقة يونس بن حبيب (النحوي) . . فقال ليونس :

ـ أصلحك الله ! إني لأرى قوماً يقولون الشعر ، لأن يكشف أحدهم سوءته ثم يمشي كذلك في الطريق العامة خير له من أن يظهر بمثل ذلك الشعر ! ولقد قلت شعراً أحب عرضه عليك ، فإن كان جيداً أظهرته وأنشدته ، وإن كان رديئاً خبأته وسترته . . ثم أنشده :

---

(١) اللهى جمع لهوة وهي أفضل العطاء .
(٢) البدور جمع بدرة وهي كيس به ألف أو عشرة آلاف .
(٣) السيب : العطاء .

طرقتك زائرة فحيِّ خيالَها بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد، ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

فرفع الشيخ رأسه، وقال: يا هذا! . اذهب فأعلنه على الملأ . . فوالله إنك أشعر من «الأعشى» إذ يقول: (رحلت سُمية غدوة أجمالها).

فقال مروان: سررتني وسؤتني. فأما الذي سررتني به فارتضاؤك شعري، وأما الذي ساءني فتقديمك إياي على «صناجة العرب» وأنت تعرف مكانته ومحله بين الشعراء.

فقال يونس: إنما قدمتك عليه لأنه قال في قصيدته تلك:

(فأصاب حبة قلبها وطحالها).

والطحال لا يدخل في شيء إلا أفسده، وقصيدتك سليمة من هذا وشبهه.

. . . ومع المهدي:

وقريب من هذه ـ من حيث المقام الشعري ـ أقصوصته مع (المهدي)، فبعد أن مات (معن بن زائدة الشيباني) آب أبو السمط إلى مسقط رأسه في اليمامة، بعد أن رثى معناً بقصيدة عصماء. . وجاء فيها:

أقمنا باليمامة بعد معن مقاماً لا نريد به زوالا
وقلنا: أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

فوصل ذلك إلى مسامع المهدي، وحفظها له في قرارة نفسه، إلى أن دخل عليه مروان في احدى المرات، وثمة قال له الخليفة قد ذهب النوال فيما زعمت، فلِمَ جئت تطلب نوالنا! لا شيء عندنا.

ثم أمر «الحاشية» أن يجروه برجله، ففعلوا به حتى أخرجوه.

ولما كان من العام القادم، تلطف الشاعر حتى دخل مع الشعراء على المهدي، فأنشده قوله:

طرقتـــك زائـــرة فحيٍّ خيالهـــا . . .

وما كان يسترسل فيها حتى استولى على الجميع صمت رهيب، وأصبحوا كأنما تعلقوا بشفتي الشاعر ـ كما يقول الدكتور طه حسين ـ. ولما بلغ قوله:

هل تطمســون من السمـاء نجومها   بأكـفِّـكـمْ أو تسـتــرون هلالــهـا
أو تجحــدون مقــالــةً عن ربكم   (جبـريل) بلّغهـا (الـرسول) فقالها
شهــدتْ من «الأنفــال» آخــرُ آية   بتـــراثــهــم فاردتـمــو إبــطالـهـا

. . زحف المهدي من صدر مصلاه، حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع. ثم قال: كم هي من بيت! . . قال مروان: مائة بيت يا أمير المؤمنين. . فأمر له بمائة ألف درهم.

وهكذا طفح كيل الاسترزاق! . .

شعـــره:

ليس لمروان ابن أبي حفصة ديوان شعر بالمعنى المعروف بين أيدينا، إلا أن هناك قصائد ومقطعات كثيرة متفرقة في أمات كتب الأدب والتاريخ القديمة، وأغلب الظن أن ديوانه قد فُقد وذهب أدراجَ الدهر، كما فقدت دواوين كثيرة لشعراء آخرين[1]. . وأظن ذلك لا يحظر علينا الحكم في شعره وتحليله على ضوء البحث والنقاش، إذ على الأقل ما علينا إلا أن نعرض لما وصل من أشعاره وحسب.

(١) صدرت الطبعة الأولى من كتابنا هذا عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م). وقد قام ـ بعد ذلك ـ الدكتور حسين عطوان بمحاولة استقصاء أشعار مروان بن أبي حفصة وجمعها من مختلف أمات كتب الأدب والتاريخ وتولى تحقيقها. وقد قامت بطبعها دار المعارف بمصر عام ١٩٧٣م. . على أنه من المحتمل ألا يكون ما جمعه الباحث الفاضل هو كل أشعار الشاعر، لكن عمل هذا الباحث ـ ولاشك ـ عمل كبير وجهد غير يسير يستحق عليه الشكر والتقدير.

وربما كانت ـ أو إنها كما أحسب ـ نماذج صادقة لما يتسم به من شاعرية حساسة وشعور دقيق ونفس راقية.

وهذه المجموعة الشعرية آية في الجودة والاتقان لفظاً ومعنى، ومثل على صفاء الطبع ورقته، وليس لضعف الفكرة أو ركاكة الأسلوب وتبذله فيها نصيب، وهذا لن يمنعنا ـ من أن نلحق مروان بعبيد الشعر الذين رووا فيه ونقحوه..

ومن لزام الحديث، قبل أن نتناول شعر مروان، أن ندرك بأن شاعرنا لم يكن ماجناً ولا عابثاً ولا زنديقاً كما هي الحال في كثير من شعراء عصره، وإنما كان من أشد عباد الله بعداً عن اللهو وانصرافاً عن العبث. ولهذا تأثيره القوي الجلي في شعره.. نعم، في شعره عبقرية مأثورة وآراء ناضجة ومذهب تجديدي وأوصاف دقيقة وأخيلة بديعة، وفيه سمو بالشعر من الإسفاف والنقائص وميل إلى الجد وهجر للفحش والهزل.. وهو يشبه في شعره ـ كما قال الأصمعي ـ زهيراً والحطيئة. أو قل إنه إلى الجاهليين والإسلاميين أقرب منه إلى معاصريه شعراء العصر العباسي.

إننا إذا نظرنا إلى شعره وجدناه يجري في أغراض دون أغراض ويتأثر بأحداث زمنه أيما تأثير، ويمثل حياة البادية تمثيلاً صادقاً إذ كانت طيلة إقامته في بلاد اليمامة.

أما الأغراض التي صرف فيها شعره، فها هي كما دبجتها يراعة عميد الأدب العربي الحديث، الدكتور طه حسين[1].

«لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر. ولعله لم يَعْدُ منها فناً أو فنين،

---

(١) حديث الأربعاء: ج٢ ص٢٣٤، ١٣٥.

فلسنا نعرف له غزلاً إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدأوا به مدائحهم ولسنا نعرف له هجاء، إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهب أو يهاجمون خصومهم» . .

«ثم لم نعرف لمروان فخراً وما نحسب أنه فاخر أو مال إلى الفخر، فقد كان رجلاً عمليًّا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة. وكان يضن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد».

«لم يعرض ـ إذن ـ إلا لفنين اثنين: المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء، وهذا طبيعي فهو راغب حين يمدح. . أما الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالاً، وإنما ليفي بعهده ويشكر صنيعه».

شيء من شعره:

والمديح في شعر مروان على صنفين: صنف، الدافع له السياسة والمادة معاً، كمديحه للخلفاء ومن إليهم ولاسيما ما يتصل بمنافحته عن بني العباس تجاه منافسيهم العلويين من بني فاطمة ـ رضي الله عنها ـ. وصنف مبعثه المادة والمحبة والإخلاص جميعاً كمدحه لمعن بن زائدة. فمن الأول قوله يؤيد «أحقية» بني العباس في الخلافة ويدافع عن وجهة نظرهم:

طاف الخيال وحيّه بسلام
أنَّى ألمَّ وليس حين لِمَام
يابن الذي ورث النبيَّ محمداً
دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم
قطع الخصام ولاتَ حين خصام

ما للنساء مع الرجال فريضة
نزلت بذلك «سورة الأنعام»
أنى يكون ـ وليس ذاك بكائن ـ
لبني البنات وراثة الأعمام؟!
ألغى سهامَهمُ الكتابُ فحاولوا
أن يشرعوا فيها بغير سهام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم
حَطْمُ المناكب كلَّ يوم زحام
إرضوا بما قسم الإله به لكم
ودعوا وراثةَ كل أصيد حام

وهكذا.. صاغ نظرية بني العباس صياغة فقهية شعرية معاً، فهو يقرر أن العباسيين أحق بوراثة الخلافة من بني فاطمة؛ لأن أباهم العباس عم الرسول ﷺ فيكون أحق بوراثة ابن أخيه من أولئك، وذلك بحكم الميراث الشرعي كما يقول.

وقد أثار هذا البيت حفيظة الشيعة، فلعنوا مروان وردوا عليه.. وما زالوا به حتى قتلوه ـ غيلة ـ في سنة ١٨١ هجرية (أو ١٨٢هـ).

وإننا لأمام نماذج كثيرة لهذا اللون الشعري السياسي يطول المقام لو أوردنا المزيد منها.

ومن الصنف الثاني قوله يمدح بني مطر، قوم معن، هذه الفريدة التي فضّله بها النقاد على كثير من الشعراء في عصره:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
ليوث لهم في بطن «خَفَّان» أشبل

همـو يمـنـعـون الـجـار حتى كأنـمـا
لجـارهـمـو بين الـسِّـمـاكـين منـزل
بهـالـيل في الإسـلام سادوا ولـم يكـن
كأولـهـم فـي الـجـاهـلـيـة أول..
همـو القـوم، إن قالـوا أصـابـوا، وإن دُعـوا
أجـابـوا، وإن أعـطوا أطـابـوا وأجـزلـوا
ولا يستـطيـع الـفـاعلـون فعـالهـم
وإن أحسـنـوا في الـنـائـبـات وأجملـوا..

وقوله في (معن) يطري فعاله ويشيد ببسالته في واقعة (الراوندية) الشهيرة وإنقاذه «المنصور» من القنا والبوارق:

«مـعـن بن زائـدة» الـذي زيدت به
شرفـاً إلـى شرف (بـنـو شيبـانِ)
إن عـد أيـام الـفـعـال فإنـمـا
يومـاه: يوم ندى ويوم طعـانِ
ما زلـت يوم (الـهـاشـمـية) معـلنـاً
بالـسـيـف دون خليفـة الـرحـمـنِ
فمـنـعـت (حـوزتـه) وكـنـت وقـاءه
مـن وقـع كل مهـنـد وسـنـانِ..

وقوله فيه أيضاً:

إذا ما تذكـرت (الـنـظيمَ) و(مُـطرقـاً)
حننتُ وأبكـاني (الـنـظيمُ) و(مطرقُ)[1]

(١) النظيم ومطرق: موقعان باليمامة.

تحن قَلُوصي نحو (صنعاء) إذ رأتْ
سماء الحيا من نحو (صنعاء) تَبْرُقُ
تحن إلى مرعى بصنعاء مخصب
وشَرْب رَوَاءٍ ماؤها لا يُرنّق[1]
وقد وثقتْ أن سوف يَصْبَحُ ربها
إذا وردت أحواضَ معن ويَغْبُق
تؤم شُريكيًّا تهلّل بالحيا
مخائله للشائمين فتصدق[2]

ويقال ما أخذ أحد من الشعراء المتقدمين ولا المحدثين ما أخذ مروان بالشعر[3]. فعلام يدل ذلك..؟!

* * *

ويأتي الرثاء في الدرجة الثانية من شعره، وكأنموذج له أختم حديثي بهذه الأبيات التي يرثي بها ولي نعمته (معناً).. وتكاد مراثيه تكون على هذا النمط:

مضى لسبيله (معن) وأبقى
مكارم لن تبيد ولن تُنالا
كأن الشمس يوم أصيب (معن)
من الإظلام مُلبَسَةٌ جِلالا
هو الجبل الذي كانت (نزار)
تهد من العدو به الجبالا

(١) الشَّرْب: مورد الماء.
(٢) الشائمون: المتطلعون للسحاب.
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٥٠، ٥١.

فإن يعـلُ الـبـلادَ له خشـوع
فقـد كانـت تطول به اختـيالا
أصـاب المـوتُ ـ يوم أصيب معن ـ
من الأحـياء أكـرمَـهـم فعـالا
وكـان الـنـاس كلهـمـو لمـعن
إلـى أن زار حفـرتَـه عِيالا . .
ولـم يك طالـب للعـرف ينـوي
إلـى غير ابـن زائـدةَ ارتـحـالا

* * *

ولمروان هذا ابن شاعر اسمه (يحي)[1] ويكنى بأبي الجنوب. كان يفد مع أبيه على الخلفاء والوزراء ببغداد. وقد مدح الهادي ورثى المهدي.

وهو شاعر مقل، كان ملحافاً يدفق ماء وجهه رخيصاً.

ومن شعره يمدح شراحيل بن معن بن زائدة بل يستجديه:

ما يجهـل النـاس من أمـر فقـد علمـوا
أن ابـن معـن (شـراحيلاً) فتى العـرب
أعـطى أبـوك أبـي قِدْمـاً ومـوَّلـه
فأعـطني مثـل ما أعـطى أبـوك أبـي
ما كان يقـدم من أرض أقـام بهـا
إلا أتـانـا بأوقـار من الـذهـب

(١) في الطبعة الأولى من هذا الكتاب أفردنا فصلاً موجزاً عن هذا الشاعر، إلا أننا ـ وقد كان الشاعر مقلاً ولم تمدنا المصادر المتاحة بمزيد من أخباره وأشعاره ـ رأينا الاكتفاء بهذه الإشارات عنه ضمن ترجمة أبيه.

ومن قوله في معن:

ومـــا رأي (مـعـن) بالـــزلـيق إذا انـتشى
ولا قبـــل شرب الـــراح وهـــو صحـــيح

توفي يحي نحو سنة ٢٠٠هـ[1].

(١) الأعلام ج٩ ص٢١٧.

العبّاس بن الأحنف

٠٠٠ ـ ١٩٢هـ

صفحه ۲ از ۲ صفحه

علم في رأسه نار، دوَّى ذكره في سماء الأدب، وطبقت شهرته الآفاق، سما به شعره حتى صار في مقدمة شعراء عصره، بل شعراء العربية جمعاء، وزاد من شأن شاعريته وعلوها أنه لم يقل شعراً في المدح والهجاء، واتصاله ببعض الخلفاء وببعض رجال البلاط العباسي لم يكن بهدف الاسترزاق، كعادة بعض ماصريه من الشعراء، بل كان اتصال مودة وألفة وصحبة ومنادمة وعلو نفس، فقد وقاه الله شر الانغماس في الملق، وصرفه عن تتبع عيوب الناس أو النيل من كرامة إنسان ـ حتى ولو كان جديراً بالذم والتشنيع . . وكان لطيفاً، ظريفاً، خفيف الدم والروح، مقبولاً عند العامة والخاصة، كما كان جميل المنظر، نظيف الثوب، لين الطباع.

والعباس بن الأحنف يمامي صميم، من بني حنيفة ـ من عَدي ـ ويُنسب إليه أنه ذكر أن «هوذة بن علي» ـ أول معدي لبس التاج وخوطب بأبيت اللعن ـ ولده من قبل بعض أمهاته. ويؤكد كونه حنفيًّا قوله:

فإن تقتلوني لن تفوتوا بمهجتي
مصاليت قومي من (حنيفة) أو (عجل)

ويعيبه النقاد في هذا البيت، لأن قتيل العشق ـ عند العرب ـ لا يُطالب به.

وفي العباس بن الأحنف يقول صريع الغواني «مسلم بن الوليد»[1]:

بنو حنيفة لا يرضى الدعيُّ بهم
فاترك حنيفة واطلب غيرها نسبا

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٥٤.

إذهب إلى عرب ترضى بنسبتهم
إني أرى لك وجهاً يشبه العربا

* * *

وُلد أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة في اليمامة أو خراسان ـ على اختلاف في الرواية ـ ورحل صغيراً إلى بغداد فنشأ بها، وتوفي في البصرة سنة ١٩٢هـ (٨٠٨م). وهي السنة التي قضى فيها رصيفه بكر بن النطاح نحبه.

قال عنه «ابن الأثير» في «المثل السائر»:

«وهو من أوائل الشعراء المحدثين، وشعره كمر النسيم على عذبات أغصان، أو كلؤلؤة طل على طرر ريحان. وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج إلى استخراجها من كتاب من كتب اللغة». . ثم أورد له أبياتاً في محبوبته ـ فوز ـ ومنها:

يا (فوز) يا منية عباس[1] قلبي يفدّي قلبك القاسي . .
أسأت إذ أحسنت ظني بكم والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني شوقي فآتيكمو والقلب مملوءٌ من الياس

. . وقال: «وهل أعذب من هذه الأبيات؟. وأعلق بالخاطر؟. وأسرى في السمع؟ ولمثلها تسهر رقدات الأجفان. وعن مثلها تتأخر السوابق عن الرهان؟. ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سهلة وعرة، قريبة بعيدة»؟.

(١) يرى بعضهم أن (فوزاً) هذه شخصية خيالية وربما كانت اسماً مستعاراً. وقد استغرق غزله بها شطراً كبيراً من ديوانه. وقد ورد في شعره ما يفهم منه أنها هاشمية لكنّ أغلب الظن أنها جارية ذات حظوة عند مولاها وأنها فتاة لعوب غنوج مدللة تلعب بأفئدة شباب زمانها.

أجل . . إنه السهل الممتنع . .

وقال الجاحظ ـ عميد الأدب العربي في زمنه ـ :

«لـولا أن العبـاس بن الأحنف أحـذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً، ما قدر أن يكون شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف . وما نعلم شاعراً لزم فناً واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر» .

وقال عنه الدكتور المرحوم زكي مبارك في «العشاق الثلاثة» :

« . . إمـام العشـاق الشـرفـاء في العصر العباسي، ورافع راية الوجدان السليم في العصر الذي بلبله إمام الشعراء الخلعاء، وهو أبو نواس» .

كمـا استشهـد أبو هلال العسكري في (كتاب الصناعتين) على الشعر الرقيق بقول العباس :

إلـيك أشكـو ـ ربِّ ـ ما حل بي ... من ظلم هذا الـظالـم الـمـذنب
صب بعـصـيانـي ولـو قال لي ... لا تشـرب الـبـارد لم أشـرب
إن سيل لم يبـذل، وإن قال لم ... يفـعـل، وإن عُوتـب لم يعـتـب

وهـذه شهـادات كبـرى، من رجـال لهم خطرهم في أفق العلم وعـالم الأدب، على نضج شاعرية العباس المتوقدة . . ولا غرو في ذلك فشعره مع جزالته وقوته ومتانة نسجه، سَلِسٌ رقيق، بعيد عن التكلف . قرأت له الكثير من قصيدهِ، فلم يشتبه عليّ منه لفظ، ولم يستعص عليّ معنى، ويشهد الله أنني لم أستنجـد بالقـاموس أو بغيره من كتب اللغة أو فقهها، أثناء قراءتي لتلك الأفكار الأبكار من شعره، على قصر باعي في هذا المضمار.

هاك مثالاً . . بل هاك باقةً شذية جميلة :

الـيوم طاب الـهـوى يا معـشـر الـنـاس
وألـبـسـتْ (فـوزُ) حبـي كلَّ إلـبـاس

ما أنسَ لا أنسَ يُمناها مُعَطَّفةً
على فؤادي ويُسراها على رأسي
قالت وإنسان ماء العين في لُججٍ
يكاد ينطق عن كرب ووسواس
يطفو ويرسو غريقاً ما تكفكفه
كفٌّ فيالكَ من حافٍ ومن راس:
عباسُ!.. ليتكَ سربالي على جسدي
أو ليتني كنتُ سربالاً لعباس[1]
أو ليته كان لي راحاً وكنتُ له
من ماء مُزنٍ فكنا - الدهرَ - في كاس
أو ليتنا طائرا إلفٍ بمهْمَهَةٍ
نخلو جميعاً ولا نأوي إلى الناس[2]
من هاب فيكَ عدواً أو أخا ثقةٍ
فامسحْ يديك وكن منه على الياس
ولائمين على حبكِ قد علموا
أن ليس بالحب من عارٍ ولا باس

أجل.. يا عباس.. ليس في الحب من عار أو بأس ما دام عفيفاً نزيهاً!..

* * *

وإن المرء لتستبد به الحيرة - وهو يطالع ديوان الشاعر -: أية زهرة يقطف؟.. وأية باقة ينتقي؟!..

---

(١) السربال: القميص.

(٢) المهمهة: الفلاة.

إن لشعره روعة في النفس، ونوطة بالقلب، فهو يشبه من الإسلاميين «ابن أبي ربيعة» ومن العباسيين» مسلم بن الوليد». . وقد أقر له «بشار بن برد» واعترف له «ابن المعتز» بأنه أحسن الشعراء كما حسده «أبو العتاهية».

وهو من المقربين لدى الخلفاء والولاة، بالرغم من أنه لم يلج باب المديح والإطراء، وقد تسنم عندهم مكانه الأعلى، وجال بشعره الغزلي في ذلك الوسط وحلّق في تلك الأجواء.

ويحكي لنا (ابن كثير) ـ صاحب البداية والنهاية ـ حكاية طريفة ملخصها: أن (الرشيد) طلب (العباس) أثناء الليل، فانزعج واستولى على أهله الذعر والفَرَق.

فلما مَثُل أمام الخليفة، قال له: ويحك. إنه قد عنّ لي بيت في جارية، فأحببت أن تشفعه بآخر. . فقال: يا أمير المؤمنين. . ما خفت أعظم من هذه الليلة، فقال: ولِمَ يا عباس؟ . . فذكر له دخول الجند عليه ليلاً.

ثم جلس حتى سكن روعه، ثم قال: ماذا قلت يا أمير المؤمنين؟

قال:

(حنان) ما رأيناها فلم نر مثلها بشرا
يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظرا

وطلب منه أن يزيد عليه. فقال على الفور. .

إذا ما الليل مال عليـ ـك بالإظلام واعتكرا
ودج فلم تر فجراً فأبرزها تر قمرا

فقال: إنا قد رأيناها، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم.

يا لله. .

* * *

لقد ضرب (العباس) في الشعر بسهم وافر، وأتى منه بالعجب العجاب، الأمر الذي جعل فحول الشعراء وأساطين البلاغة في زمنه يعترفون له بالتبريز وقد وهبه الله ملكة غريزية في إبداع الشعر وحسن التصرف به. ونظرة خاطفة في ديوانه تعطينا فكرة واضحة عن هذا الشاعر العربي العظيم، فهو ذو شعور عميق، ووصف دقيق، يجنح أحياناً إلى الخيال، ويتسم شعره بطابع الرقة والأناقة والإفراط في الصراحة الأدبية، ونَفَسُهُ في النسيب فياض ممتد، لا يكاد يجارى فيه أو يدرك، وقد وشّى أسلوبه بكثير من التشبيه والمجاز كقوله:

كأنــهــا حين تمــشــي في وصــائـفـهــا
تخــطو على الـبـيض أو فوق الـقــوارير

وله نهج خاص في الشعر، يرشحه لأن يكون زعيماً لمدرسة شعرية قائمة بذاتها..

وفي (مختارات البارودي) كثير من قصائده.

وديوانه مطبوع منذ سنة ١٢٩٨هـ. كما أن الأديبة العراقية «عاتكة الخزرجي» قامت مؤخراً بطبع وتحقيق هذا الديوان، لنيل دكتوراه الدولة من جامعة السوربون، وقد صدره المستشرق الفرنسي «بلاشير»، وقد ظفرت المحققة بشهادة دكتوراه دولة في الآداب، بدرجة مشرف جداً، وهو عمل تشكر عليه ـ بلا ريب ـ الدكتورة الشاعرة.

ولقد بلغ شعر العباس في الجودة والإتقان وحسن السبك شأواً بعيداً.. وها هو يطلق العنان لشاعريته، ويلفظ الدرر بسخاء، هو يجعل من قلبه وهواجسه لساناً لأخدانه ورسولاً من محبوبته.. وهذه هي فلسفة العشق ـ كما أحب أن أسميها ـ أو أنانية الشاعر كما يقول أنصار التجديد في عصرنا الحاضر. وكل هذا ما لا شأن لنا فيه الآن.. وكل شأننا أن نقرأ معه:

أيا من دعـانـي إلـيه الـهـوى فلبـيتُ لمـا دعـانـي مجـيبـا
ويا من تعـلقـتـه ناشئـاً فشـبـت ومـا آن لي أن أشـيبـا

لنجده بعد هذا يقول:

وكـم باسـطين إلـى وصـلنـا أكـفَّهـمـو لم ينـالـوا نصـيبـا

. . والقلوب لا تجازي القلوب، مهما تلاطمت الأمواج، ومهما عبست الحياة. . ولو كان الأمر كما زعموا، لم يشك محب حبيبه، ولما تكلف المرء الحياة:

لعـمـري لقـد كذب الـزاعمـو ن بأن الـقـلوب تجـازي القلوبـا
ولـو كان ذاك كمـا يزعـمـو ن لمـا كان يشكـو محب حبيبـا

وقد صور حلاوة حديث أهل بغداد بقوله:

أتـأذنـون لصـبٍ في زيارتـكـم فعنـدكم «شهـوات السمع والبصر»

ولك ـ أيها القارىء ـ أن تسرح بخيالك كثيراً أمام هذه الاستعارة الجميلة «شهوات السمع والبصر» ما شاء لك الخيال وأن تقف أمامها متفكراً مستمتعاً بلذة الاستعارة وما خلفها من صور جميلة بديعة.

ويحلو له ـ وهو الشاعر الدنِف المتيم الهائم في أودية الحب والهيام ـ أن يجعل من موطىء قدمي فاتنته طيباً يضوع شذاه من كل صوب على الناس، وليس على العباس وحده، فهل شطح به شيطان الهوى وعصف به جنون العشق فخضع لقانون العاطفة مرغماً.

لئن كان الأمرُ مبالغةً، فهي مقبولة في دنيا الشعر. ثم إن العاشق ينظر دائماً من وراء عاطفته ولا يستطيع كبح جماحها. . فهل نقول ـ من بعد ـ إنه كان غير ملوم:

وأنـتِ إذا ما وطئـتِ الـتـرا ب صار ترابـك للنـاس طيبـا

. . ثم ما رأيك في بيت من الشعر كهذا:

تعتـل بالشغـل عنـا ما تكلمنـا والشغل للقلب ليس الشغل للبدن

لاشك أنه يحمل معنىً شعريًّا راقصاً إذ صوَّر به الشاعرُ حسرةَ المحب ولهفته كأشد ما تكون الحال، كما صور به صدود الخدين وتعلله المصطنع على أجمل ما تكون الصورة. . وهو يحكي به تجربة فؤاد معنّى أخذ منه الوله كل مأخذ. . بل يحكي فلسفة حسب استخوذ على هذا الفؤاد. .

وأضع ـ الآن ـ بين يديك، بيتين من وسط شعره. . وإن صِدْقَ الخبر فيهما ليحدوك أن ترددهما مرات، كما رددهما الرواة من قبل، وقالوا: «لو لم يقل العباس إلا هذين البيتين لكفاه شعراً»:

لعمرك ما يستريح المحب حتى يبوح بأسراره
فقد يكتم المرء أسراره فتظهر في بعض أشعاره

أجل. . إن الشعر صورة ناطقة لقلب صاحبه، فهو صوت الوجدان وصدى العاطفة، ويستحيل على شاعر هائم أن يكتم تعلقه وولعه مهما حاول الكتمان، لأن الشاعرية مَلَكة متفجرة تتمرد على صاحبها قسراً، فتفضحه وتجيش بكل ما يعتلج في حشاه. . وفي ذلك تنفيس لمعاناته وراحة من أثقال همومه.

موازنة. . ومطارحة:

كان العباس معاصراً للشاعر أبي نواس ـ بل كانا صديقين وَدُودَيْن ـ. وكثيراً ما جمعتهما مجالس الأدب والسمر والأنس. وفي ذات أمسية من أمسيات تلك المجالس حلا لبعض حضورها من متذوقي الشعر أن يعرف رأي كل واحد من الشاعرين في الآخر، فاختلس فرصة خروج العباس من المجلس لحاجة له،

وسأل أبا نواس عن رأيه في العباس وشعره، فكان الجواب: «إنه أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم». ثم عاد العباس إلى مجلسه، وبعد وقت نهض النواسي لحاجة له أيضاً، فكرر السائل السؤال إلى العباس طالباً رأيه في أبي نواس وشعره، فكان الجواب: «إنه لأقرّ للعين من وصل بعد هجر، ووفاء بعد عذر، وإنجاز وعد بعد يأس».

ولما صار الجميع إلى مائدة الطعام، أعلم كل واحد منهما رأي الآخر فيه.

فماذا قالا؟.. أو ماذا جرى من مطارحة شعرية بينهما؟..

قال أبو نواس:

إذا ارتدتَ فتى الكاس فلا تعدل بعباس

فقال العباس:

إذا نازعتَ صفو الكاس يوماً أخا ثقة فمثلَ أبي نواس
فتى يشتد حبل الود منه إذا ما خُلة رَثّتْ لناس

فرفع أبو نواس قدحه قائلاً:

أبا الفضل اشربنْ ذا الكا سَ.. إني شارب كاسي

فقال أبو الفضل:

نعم يا أوحد النا س على العينين والراس

فقال أبو نواس:

فقد حف لنا المجـ ـلسُ بالنسرين والآسِ

فقال العباس:

واخوانٍ بهاليلٍ سراةٍ سادةِ الناسِ

فقال أبو نواس:

وخَوْدٍ لذةِ المسمو ع مثلِ الغُصُنِ الكاسي

فقال العباس:

وقد ألبسها الرحمـ ـنُ من أحسنِ إلباسِ

فقال أبو نواس:

فقد زِينتْ باكليلٍ يواقيتٍ على الراسِ

فقال العباس:

فلا تحبسْ أخي كأساً فإني غيرُ حبّاس

ويقول الدكتور زكي مبارك، وهو يروي هذه المطارحة عن بعض مؤرخي الأدب: «والحق أن أبا نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة، فقد جمع بينهما الغزل والظرف، وصفاء الروح»[1].

* * *

ويعتبر «العباس» من «الموحدين» في الحب، لأنه لم يحب غير (فوز) وقد تصوف في حبه لها، وأوغل في هذه «الصوفية» أيما إيغال.

* * *

على أن هذا الطراز من الصحافة ـ والشعراء صحافة الماضي ـ لم يقدر له البقاء أكثر مما كان.. فلكل أجل كتاب.. وقد وافته منيته قبيل وفاة الرشيد بشهور.. حكى عبدالملك بن قريب (الأصمعي) قال: دخلت على العباس بن الأحنف، وهو طريح الفراش، يجود بنفسه، ويقول:

يا بعيد الدار عن وطنهْ مفرداً يبكي على شجنهْ
كلما جد النحيب به زادت الأسقام في بدنهْ

(١) الموازنة بين الشعراء ص٣٧٠.

وأغمي عليه، ثم انتبه بصوت طائر على أيكته، فقال:

ولـقـد زاد الـفـؤاد شجـاً هاتـف يبـكـي على فَنَـنِـه
شفـه مـا شفـنـي فبـكـى كلنـا يبـكـي على سكـنـه

قال الأصمعي ـ إن صحت الرواية ـ: ثم أغمي عليه، مرة ثانية، فحركته، فإذا هو قد مات..

ويبدو أن نهاية كل محب لا بد لها من أسطورة!..

عُمـارة بـن عقيـل

١٨٢ ـ ٢٣٩هـ

قرية يمامية في ناحية «الوشم» تدعى «أثيفية» أو «ذات الأثافي» لا يدور بخلد راء لها أنها قد أنجبت شاعراً عظيماً يحسب الولاة والأدباء والدهماء ـ على حد سواء ـ لشعره ألف حساب، ويخشى لسانه عشرات الناس.

لقد نبغ هذا الشاعر، كما نبغ جده الثاني جرير، من هذه القرية النائمة في جفن التاريخ، وأفاض لحناً وهزجاً، ومدحاً وقدحاً، وعتباً وسماحاً، وزهداً وعظة.. ولعل النبوغ ـ كما يقال ـ منبته الريف والبادية.. إن شاعرنا هذا كان ربيب البساطة فهو ابن بيئته اليمامية. وقد ملأت شاعريته أجواء الحياة العربية بالحداء العذب والشجو الطرب إلى جانب ما يكتنف صاحب هذه الشاعرية من لغو في القول وغرض في النفس أحياناً.. لكن هذا الشعر، على أية حال، قد كان ثراءً لأدب اليمامة يضاف إلى ثروات أدبية كثيرة أخرى، كما قد أثرت منه لغة الضاد إبان عهد التدوين والتقنين ثراءً جماً.

«وعُمارة بن عقيل» هو أحد أفراد أسرة بلغت شأواً بعيداً في الشعر، فهي ذات مجد أدبي عريق، إذ كان جدها الأعلى (عطية بن الخطفى اليربوعي) شاعراً، (وابنه جرير) عملاق الشعر الأموي بلا منازع، وأولاد جرير الثلاثة (بلال ـ جد عمارة الأدنى ـ وعكرمة ونوح) كلهم شعراء، بل شعراء مجيدون ـ وإن كانوا مقلين ـ. وطبعاً كان هذا إرهاصاً لأن يتسنم صاحبنا مكانه في دوحة القريض.

ولقد أمضى شاعرنا أيام صباه ـ ولست أدري أهو ذو صبوة أم لا!؟ ـ أمضاها في بلاده «اليمامة» يلهو مع لداته ويمرح.. وما إخاله إلا ثملاً نشوان

من طبيعة الحياة الريفية . . فقد كانت هذه الديار قديماً ـ كماتروي كتب التاريخ ـ لا تقل في خصبها وخيرها ونتاجها عن البلاد المجاورة لها . . بل ربما فاقتها في كثير من البقاع .

وما كاد شاعرنا يناهز الحلم، حتى هجر بلاده مولياً وجهه شطر (البصرة) ليكون قريباً من (بغداد) موطن السلطان وعاصمة الخلافة، حيث سيحظى ـ مع أقرانه الشعراء ـ بعطايا الخلفاء وهباتهم، وقد كان له ما أراد .

كان بزوغ عمارة إلى فجر الحياة عام ١٨٢هـ أي عام ٧٩٨ للميلاد[١]، وما كاد يبلغ مبلغ الفتيان حتى مد بصره إلى الأمام وسرح بخياله في ذلك المجد الشعري الأثيل فتحركت فيه عروق شاعرية عميقة الجذور، هب لها مجيباً ملبيًّا، فراح في سخاء يلفظ درر البيان ولآليء القوافي، وأرخى لعاطفته العنان، لتحكي خلجات الضمير؛ فكان من ذلك أن أعطى هذه الصور الأدبية التي سنعرض لبعض منها في هذه العجالة الخاطفة . . ولكنك ـ يا قارئي العزيز ـ ستشتبك معي في خصومة أدبية ـ وربما كانت غير معلنة ـ متى علمتَ أنه صرف غالب شعره في المدح والهجاء، ومتى علمت أيضاً أن أجود شعره وأحسنه ـ على الإطلاق ـ هي أهاجيه التي أرسلها كالسهام صوب خصومه ومنافسيه .

مكانته الشعرية :

يعد عمارة من أبرز الشعراء الذين بَرَزوا في تاريخ الشعر العربي عامة، والشعر اليمامي خاصة، والذين كان الرواة وعلماء النحو واللغة يعتدون بمأثورهم، وهو في نفس الوقت ـ وعلى ما أعلم ـ آخر من يحتج بأشعارهم،

(١) الأعلام : ج٥ ص١٩٣ .

وسوف لا ترى في ذلك أي غرابة إذ نعلم أنه قضى الطور الأول من حياته في قلب الجزيرة العربية حيث اللغة لا تزال بخير، لم تخالطها اللكنة والعجمة ولم يشبهـا خطأ، بعـد، أو فسـاد، وإذ نعلم أنه بعد رحيله عن مغناه وقراره في (البصرة) كان ينتجع مضارب الأعراب المخيمين في جنوب العراق وشمالي نجد[1].

وإن القارىء لشعره ليلمس فيه جزالة الشعر الإسلامي والأموي، وما في ذلك من أسلوب رصين، ومن وعوثة خيال في بعض اللفتات، وقلة عناية بسياق الفكر، أو ترتيبه على سند المنطق واقتضائه، إذ هو في قصائده أبعد ما يكون عن النظريات الفلسفية والقضايا المنطقية. . كما يلمس فيه أيضاً رقة العصر العبـاسي ومـا فيه من عذوبـة الجرس ورونق الأسلوب، وترك الابتداء بذكر الحبائب والأطلال في مستهل القصيدة كعادة المتقدمين، والابتعاد غالباً عن خشونة التمثيل، ومحاولة ربط المعاني وتسلسلها؛ فشعره كما سنعلم مخضرم يجمع بين سمات عصرين متباينين كل التباين.

والحق الذي لا جرم فيه أن مكانته الشعرية قد بلغت حداً عظيماً صار معه العلماء في البصرة يأتون إليه ليستشيروه في بعض قواعد اللغة ـ وأصولها[2]. . وكثير من حفظة اللغة ونقدة الشعر يفضلونه على «ذي الرمة». وقد قال أحدهم؛ إن عمارة أشد استواءً في شعره من جده (جرير) لأن جريراً قد أسقط في شعره وأسف وضعف أكثر من مرة (كذا)، أما عمارة فلم يعثروا له على سقطة واحدة، وكفى بهذا لينهض دليلاً على علو كعبة في الشعر وبلوغه فيه القدح المعلّى.

ووصفه ابن المعتز في (طبقات الشعراء) بأنه أشعر أهل زمانه[3].

---

(١) الأعلام: ج٥ ص١٩٣.

(٢) الأعلام: ج٥ ص١٩٣.

(٣) ص٣١٦.

زد على هذا أن (المأمون) كثيراً ما كان يأمر بكتابة شعر عمارة والاحتفاظ به، وكأنما هو بهذا يفعل صنيع النعمان بن المنذر ـ ملك الحيرة ـ حينما كان يأمر بكتابة ما يستجيده من أشعار الجاهليين التي عرفت ـ فيما بعد ـ بالمعلقات أو المذهبات.

وقد حدّث عمارة مرة عن نفسه، فقال:

كنت كثيراً ما أذهب إلى «المأمون» وكان يأنس بي ويجاذبني أطراف الحديث، وآل الأمر إلى أن كنت أحد ندمائه المقربين، فكان يدعو بالشراب فنشربه سويًّا في المجلس، وكنت أنشده ما أقول من الشعر فألمح عليه علامات الإعجاب، وقد يبلغ الأمر أن يدعو أحد كتبته فيأمره بقيد الكثير مما أقول.

كما حدث عن نفسه في معرض الاعتراف أو الإعلان عن قيمته الشعرية بين أقرانه، فقال ما معناه، ما هاجيت شاعراً قط إلا كُفيت مؤنته في عام أو أقل من العام.. إما أن يقتل أو أفحمه.. حتى هاجاني (أبو الركين العجلي) الشاعر، فخبثني بالهجاء، وما زال كذلك حتى هجا (نميراً) فأثار سخطهم وما زالوا به حتى قتلوه يوماً، وبذلك كُفيت شره.

اتصالاته بالأعيان.. وأشعاره فيه:

أودى عمارة في السنة التاسعة والثلاثين بعد المائة الثانية للهجرة، الموافقة للسنة الثالثة والخمسين بعد الثمانمائة للميلاد، فعلى هذا يكون قد قضى حوالي السبعة والخمسين عاماً[1] أمضى معظمها في كنف بني العباس، وفي كنف قادتهم في العراق واليمامة، وبعض وجهاء الولايات الإسلامية.

قدم من اليمامة يافعاً، وعلا به شعره إلى قصور الخلفاء، فاتصل بالمأمون

(١) هكذا تقول الروايات، ولكن في شعره ما يؤكد أنه قد تخطى السبعين. ولعله الصواب.

ـ كما أسلفت ـ واحتسى من فيض سيبه، وعاصر من بعده من الخلفاء كلاً من المعتصم والواثق والمتوكل. . فكان من شعرائهم الأدنين. . كما لقي القبول من وجهاء الدولة ومن بأيديهم أقاليدها، واتصل باسحاق بن إبراهيم المصعبي، وأكثر من المديح فيه. . وأشعاره فيه تعد من جيد قوله. . كما اتصل بخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني (توفي سنة ٢٣٠هـ) وخصه بفرائد شعرية هي آية من آيات الشعر العربي القديم. ومن ذلك قوله:

أرى الناس طراً حامدين لخالد
وما كلهم أفضت إليه صنائعه
ولن يترك الأقوام أن يحمدوا الفتى
إذا كرمت أخلاقه وطبائعه
فتى أمعنت ضراؤه في عدوه
وخصت وعمت في الصديق منافعه

وكقوله فيه:

تأبى خلائق (خالد) وفعاله
إلا تجنب كلِّ أمر عائب
فإذا حضرت الباب عند غدائه
أذِن الغداء لنا برغم «الحاجب»

واتصل بعمرو بن مسعدة، وأجزل له هذا من العطايا ما حرك لهاته وأثار شعوره، فقال فيه كثيراً من القصائد. . ونحن هنا نقتطف هذه الأبيات من قصيدة قالها في عمرو. . قال:

(عمرو بن مسعدة) الكريم فعاله
خير وأمجد من (أبي عباد)
من لم يذمم والداه ولم يكن
بالري علج بطالة وحصاد

بصـرتـه سبـل الـرشـاد فمـا انـتهى
لسـبـيـل مكـرمـة ولا إرشـاد..
وعـرفـت إذ علقـت يدي بعـنـانـه
أنـي علقـت عنـان خير جواد
وأصـون عرضـي بالسخـاء، وإن غدت
غُبْـرَ الـمـحـاجـر شُعَّثـاً (أولادي)

أثـر أهاجيـه:

وفي الهجاء؛ كاد أبو عقيل يعيد للتاريخ ـ كَرَّةً أخرى ـ تلك المعارك التي حمي وطيسها واستعر أوارها بين جده (جرير) من جهة، والفرزدق والأخطل من جهة أخرى.. فقد حدثت ملاحاة ومهاجاة بينه وبين لفيف من شعراء عصره أمثـال (فروة بن خميصة الأسدي) الذي امتد حبل التهاجي بينه وبين عمارة ردحاً من العمر، ولكن فروة ما عتَّم أن أخلى الساحة وترك عمارة يصول فيها وحيداً صول الهزبر النشوان بانتصاره، فقد لاقى حتفه قتيلاً من جراء بيت واحد قاله عمارة من قصيدة ينقض بها أبياتاً لفروة[1] وهذا البيت هو:

ما في الـسـوية أن تجـر عليهـمـو
وتـكـون يوم الـروع أول صادر

فإنه لما أحاطت به (طيء) وقد كان في معاذ وموئل، وكان كثير الظفر بهم كثير العفو عمن قدر عليه منهم، فقالوا له: والله لا عرضنا لك ولا وصلنا إليك سوءاً فامض لكلمتك ولكن الوتر معك فإن فيهم لثأراً، فقال فروة: فأنا إذن كما قال ابن المراغة:

---

(١) من هذه الأبيات:

وابـن الـمـراغـة جاحـر من خوفنـا (بـالـوشـم) منـزلـة الـذليل الصـاغـر
يخـشـى الـريـاح بأن تكـون طليعـة أو أن تحـل به عقـوبـة بادر

(مـا في السـوية أن تجـر. . . . .)
فهيأ نفسه وشجعها للنضال دون حوزة أصحابه، فلم يزل يحمي هؤلاء ويذود القوم وينكي فيهم، حتى اضطرهم إلى قتله، وقد كان جمعهم يفوق جمعه عدداً وعدة.

وهكذا كان بيت عمارة هو الدافع الأول إلى رمي «فروة» في حلبة الحِمام المحدق.

ومن هؤلاء أيضاً: أبو الرديني العكلي، ولكن عمارة قد كُفي مؤونته كما ألمحت آنفاً.

أغـراض أخـرى:

على أن له بجانب هذين الغرضين اللذين برز فيهما أغراضاً أخرى نظم فيهـا على قِلٍ، كالعتاب والعظة والتزهيد، وهذه أبيات عَتْبٍ ثلاثة أعرضها عليك ـ أيها القارىء ـ كأنموذج لهذا اللون من شعره. وهي ـ:

تبـحـثـتـمـو سخـطي فغيَّر بحـثكـم
نَخِـيلَةَ نفسٍ كان نُصْـحـاً ضمـيرهـا
ولـن يُلْبِثَ الـتـخـشـين نفسـاً كريمـة
عريكـتُـهـا أن يسـتـمرَّ مريرهـا
ومـا الـنـفـس إلا نطفـة بقـرارة
إذا لم تُكَـدَّر كان صفـواً غديرهـا

وقد أوردها صاحب (معجم الشعراء)، وذكر أن «ابن الأعرابي» ـ من رواة اللغة ـ قد أنشدها وأن «أبا العباس» المبرد، كان يستحسنها ويعجب

بمعانيها[1].

ومن شعر عُمارة في العظة والاعتبار والزهد في الحياة الدنيا:

عجبت لتغريسي نوى النخل بعد ما
طلعت على (السبعين) أو كدت أفعل

وأدركت ملءَ الأرض ناساً فأصبحوا
كأهل الديار قُوِّضوا فتحملوا..

وما نحن إلا رفقة قد ترحلت
وأخرى تُقَضِّي حاجَها ثم ترحل

ومن قوله، وقد نظرت إليه زوجته[2] بعدما افتقر وساءت حالته ـ:

قالت (مفداة) لما أن رأت أرقي
والهم يعتادني من طيفه لَمَمُ:

أنهبت مالك في الأدنين آصرةً
وفي الأباعد حتى حفك العدم

فاطلب إليهم تجد ما شئت من حسن
تسدي إليهم فقد بانت لهم جرم

فقلت: عاذلُ..! قد أكبرتِ لائمتي
ولم يمت (حاتم) عذلاً ولا (هرم)!

ويقال: إنه قد أنشد هذه الأبيات مرة عند (المأمون).. ولكن (المأمون) نظر إليه غضبان قائلاً: قد علت همتك إلى أن ترقى بنفسك إلى (هرم بن سنان) وقد خرج من ماله في سبيل الصلح وحل النزاع بين عبس وذبيان؟.

---

(١) معجم الشعراء ص٧٨.

(٢) قال عمارة: كنت دميماً داهياً، فتزوجت امرأة حسناء رعناء، ليكون أولادي في جمالها ودهائي، فجاءوا في رعونتها وفي دمامتي (تاريخ بغداد ج١٢ ص٢٨٢).

ولا ندري بم أجاب عمارة المأمون. . ولعله آثر الصمت في موقف كهذا. .

توفي عُمارة سنة **٢٣٩** هـ عن سبعة وخمسين عاماً. وقد عاش سنيَّه الأخيرة كفيف البصر.

مَـــروَان الأصغـــر

صفحه ۱۲ ناقصه

كان هذا الشاعر ـ وهو حفيد مروان (الأكبر) بن أبي حفصة، وابن يحي بن مروان، اللذين سبقت الإحاطة بهما[1] ـ لبق الشاعرية، ميسور العبارة، سهل الإرسال، لطيف الإشارة، وكان مع ذلك هجَّاءً مقذعاً، فاحش الأسلوب، مسلول اللسان، وإن هذه الناحية في شعره لتبرزه لك في شخصية غريبة لها أسلوبها في الحياة، فتتصوره إنساناً بطبعين.

ولم يكن هو بالوفير الانتاج، فقد حاولت عبثاً أن ألتمس له المزيد، فلم أعثر إلا على بعض مقطعات متفرقة في كتب الأدب، أحسب أنها ليست كل ما قال، كما أحسب، في نفس الوقت، أنه مقل، وأن هذا الشعر الموجود بين أيدينا لا يخلو من ركاكة وضعف في بعض المواضع، وأن من الجائز أن يكون ذلك من رواسب عهد «الغرزمة» أي عهد محاولاته الشعرية الأولى.

وكجاري عادة الشعراء القدامى راح يبحث عن نَفَاق سلعته ورواجها في كنف بعض القادة والولاة وذوي الوجاهة؛ فقد اتصل بالبلاط العباسي، وراجت فيه بضاعته، وصار من مقربي الخليفة والمحبوبين لديه، وقد أثرى من قرض شعره ثراءً واسعاً، وأقطعه أحد الخلفاء ـ وهو المتوكل ـ عدداً من الأراضي والضياع في (اليمامة) بات يستثمرها مع عائلته وينعم بخيراتها.

قلنا: إنه كان هجَّاء. ونقول إنه كان مداحاً.. وهجَّاءً. وكان شاعراً آخر.. عشق الشعر فتيًّا ويافعاً، فغنى به مع الأطيار، وتجاوب مع الأصداء،

---

(١) الأغاني: ج١١ ص٢.

وطفق يتهادى بخياله فيه، حتى حصل على مأربه وقضى لبانته.

لعب حب المال برأسه، فشد الرحال إلى حاضرة الخلافة، واستطاع ـ على كثرة منافسيه ـ أن يمخر عُباب الزحام، ويخترق أسداف الحجب، ويصل إلى حلبة السباق ليشدو أمام الخليفة، فلعل هذا يجود عليه بما يقسمه الله له، أو لعل شاعرنا يحظى بعطف خاص يكسبه الهيبة الاجتماعية، وقد تحققت أحلامه، فكان «حسانَ» المتوكل وغرِّيده الصداح، يسلو به ويأنس بأدبه ويطارحه عيون القول والشعر.

أنشد للخليفة ـ يوماً ـ فصفق له ولاشك، وأمر له من فوره ـ كما تقول الرواية ـ برقم خيالي من الدراهم، عدا الملبس والمركب. وعدا عين الرضا.

ولِمَ ـ وهو لم يبخل يوماً بالفرائد الرفيعة في وصف ممدوحه ولم يضن عليه بغرر المدائح وروائع الإطراء ـ لِمَ لا ينشد مولاه بعد أن حشى لهاته بالمال والمتاع.

تخير رب الناس للناس (جعفراً)
وأملكه أمر البلاد تخيرا

ولم لا ينشد لرب الندى والجود صِدْقاً أو ميناً:

فأمسكْ ندى كفيك عني ولا تزد
فقد كدتُ أن أطغى وأن أتجبرا

آه!. ماذا تظنه واجداً بعد ذلك؟. يقول مؤرخو الأدب: أن المتوكل قال له عند نهاية هذا البيت «لا والله لا أمسك حت أغرقك بجودي».

وقد أغرق المتوكل بجوده شاعرنا فعلاً ودفن فقره!.

ذاك ـ ولا مراء ضحكة من مروان، لأنه يعلم يقيناً أن البيت بعشر وعشر من الجوائز.. وإلا فما معنى هذا اللغط؟ ومن ذا يأبي المال؟ ولاسيما كشاعر

اتخذ شعره وسيلة للعيش والاسترزاق..

بخ.. بخ.. إنها شنشنة كثير من الشعراء منذ كان الشعر ومنذ تفوه به قُصَّاده. فالمال بيت القصيد في لغة الشعر.. ألم تر أن المتوكل قال له بعد ذلك: سلني حاجتك يا مروان!. فقال له مروان في نُهمة: الضيعة التي أمرت أن أُقطعها في اليمامة، ذكر (ابن المدبر) انها وقف المعتصم على ولده. فأجاب الخليفة: انه قد قبله إياها مائة عام بمائة درهم! ولكن مروان ـ وهو الأديب الحصيف ـ يقول إنه لا تحسن ضيعة بدرهم في السنة! فيقول ابن المدبر: فبألف درهم في كل عام، فيوافق مروان، وتأخذ الأضحوكة طريقها إلى التنفيذ.

تُرى هل كان هذا كل ما يرجوه سليل الحفصيين؟.. أبداً والله، فقد كان عميق التفكير، بعيد النظر. لذا كان متوقعاً قولة المتوكل له: هذه قُبالة فسلني حاجتك.. فإذا به يصارحه سائلاً إياه ضيعة في اليمامة تسمى (السيوح) كان الواثق قد أمر بإقطاعها له، ولكن الوزير (ابن الزيات) منعه إياها. وفي التو أمر المتوكل بإمضاء الإقطاع لمروان.

هذه صورة من صور المجهود الأدبي الذي كان مروان يبذله طيلة علاقته بحكام بغداد. وهي كما تبدو عُصارة ذهنية لا بأس بها، وإن كان يكتنفها مآخذ موضوعية وأخرى شكلية.

* * *

ألمعنا إلى أن شاعرنا كان هجاء، مسلول اللسان، ونريد هنا أن نعزز مبلغ ذلك من الواقع.

نقل عملاق الأدب العربي أبو الفرج الأصبهاني في كتابه (الأغاني)[1] ان

(١) ج١١ ص٣.

أغلب السهـام التي يرسلهـا هذا الشاعر اليمامي كانت موجهة إلى علي بن الجهم ـ الشاعر المعروف ـ وذلك أن عليًّا هذا كان كثير الطعن في غيبة مروان عند المتوكل ـ بدافع الحسد والغيرة منه لما له من حظوة عند الخليفة. وقد انتهز الخليفة الفرصة ليضرم نار الخصام بين الرجلين من أجل أن يسمعاه شيئاً من الشعر يتهاجيان به أمامه، فيدخلان بذلك السرور والبهجة إلى نفسه.

سأل المتوكل ـ يوماً ـ عليًّا بن الجهم: أيما أشعر أنت أم مروان؟.. فقال أنا يا أمير المؤمنين: ـ وما كاد علي يطبق شفتيه، حتى دخل مروان، فبادره المتوكل قائلاً قد سمعت ما قاله علي فما عندك؟!. قال: كل أحد أشعر مني يا أمير المؤمنين، ولا أصف نفسي ولا أزكيها؛ وإذا رضي أمير المؤمنين فماذا يضيرني لو رُميت بالعيب والتزييف. قال: صدقت ولكن عليًّا يزعم ـ سراً وجهراً ـ أنه أشعر منك. فالتفت مروان إلى علي وقال في نغمة باردة: أأنت أشعر مني يا علي. قال: نعم أو تشك في ذلك. قال: نعم، أشك وأشك، وهذا أمير المؤمنين بيننا.

أجـل.. لقـد كان مروان عارفـاً من أين تؤكـل الكتف. وقد فطن لهذه الألعـوبـة علي بن الجهم، فأعلنهـا على حقيقتها: أن أمير المؤمنين يحابي مروان. ومع هذا فقد أسند الخليفة أمر الفصل بينهما إلى «ابن حمدون» ـ وكان من المتعاطين للأدب والشعر ـ غير أن (المسكين) لم يطق الأمر.. فهو بين غضنفرين.. وعداوة الشعراء بئس المقتنى. لذا فقد استطاع التخلص منهما بطريقـة لبقـة هي طريقـة (الحيدة) عنـد البـلاغيين، وبت في الأمر بقوله: أشعـرهما أعرقهما في الشعر. ولم يكن هذا فصل ختام، فقد اضطرب ابن الجهم وصعق ولم يرق له حكم هذا الخائف الوجل. ولكن صاحب الموقف ـ وهو الخليفة ـ يصف هذا الإباء بالعجز والإعياء، ويتحدى عليًّا بهجو مروان.

ولما لم يحالف التوفيق عليًّا في انتحال الأعذار، وبعدما قاس الخليفة

الأمـر، لم يجد مندوحة لإرضاء نفسه من أن يأمر مروان بهجاء علي، فلبى مروان الأمر، وراح يهجو منافسه الأول بأبيات نابية عن سنن المجتمع نتورع عن ذكرها.

ولم يزل المتوكل ساخراً من ابن الجهم، مستزيداً من مروان. ومروان لم يكن بالكاره لمثل هذه المناورة الأدبية، وقد أنشد ضمن ما أنشد قوله:

لعـمـرك ما الـجـهـم بن بدر بشـاعـر
وهـذا علي بعـده يدعـي الـشـعـرا
ولـكـن أبـي قد كان جاراً لأمـه
فلمـا ادعـى الأشـعـار أوهـمني أمـرا!

وأنشد أيضاً:

يابـن بـدر يا عليـهْ
قلـتَ إنـي قرشـيـة
قلـت مـا ليـس بحـق
فاسكتـي يا نبـطيـة!
اسـكتـي يا بنـت جهـم
اسـكـتـي يا حلقيـة

وقـد أمسـك بهذه الأبيات الثلاثة أحد مطربي الجلسة، فرفع صوته بها حالاً.. فانقلب جو المجلس إلى ضحك كاد يخرج من حد المعقول، فاحمر وجه (ابن الجهم). ويُسجن (ابن الجهم) مرة بأمر المتوكل، فينشيء قصيدة يستعـطف بهـا قلب الخليفـة، ويعـرِّض فيهـا بمن ناوأه من رجـال البـلاط والحاشية، فيقف الخليفة حائراً، ولكنه سرعان ما تنبه للأمر، فأوعز إلى مروان بأن يرد على تلك القصيدة فيرسلهـا مروان حرة طليقـة.. حرة في اندفاعها الهائج.. وطليقة من حدود الأدب والشيم فيقول:

ألـم تعـلـم بأنـك يابـن جهـم
دعـيٌّ في أنـاس أدعـياء
(أعبـدَ الله) تهجـو و(ابن عمـرو)
و(بـختيشـوع) أصحـاب الـوفـاء
هجـوت الأكـرمين وأنت (كلب)
حقيـق بالـشـتيمـة والـهجـاء!

أتـرمـي بالـزنـاء بنـي حـلال وأنـت زنـيـم أولاد(..)!
(أسامة) من جدودك يابن جهم؟! كذبتَ.. ومـا بذلـك من خفـاء!

وما كاد المتوكل يسمع شعر مروان، حتى ازداد حنقه على ابن الجهم، وأمر بالتشديد عليه في غياهب السجن.

* * *

وأخيراً.. فقد كان صاحبنا مروان شاعراً تغلب عليه العاطفة والتشوق إلى الأهل والمغنى.. فالحنين يأتي باباً ثالثاً في نتاجه الشعري. وها أنا أختم هذا الفصل بأبيات ثلاثة قالها يحن إلى بلاد (نجد) وما فيها من استمتاع بمجالسة قومه وأخدانه:

سقى الله (نجـداً) والسـلام على (نجـد)
وياحبـذا (نجـد) على النـأي والبعـد
نظرت إلى (نجـد) ـ وبغـداد دونهـا ـ
لعلي أرى (نجداً) وهيهات من (نجد)!
و(نـجـد) بهـا قوم هواهـم زيارتـي
ولا شيء أحـلى من زيارتـهـم عنـدي

بربك قل.. كم كرر كلمة «نجد» هنا؟!

إنه لتكرار بلاغي جميل. وقد يحلو المكرر كما يقولون.

ويُعد مروان هذا ـ على ما روى أبو الفرج الأصبهاني[1] ـ خاتمة الشعراء الحفصيين وهو يقصد المجيدين منهم وإلا فقد جاء بعد شاعرنا من هؤلاء من كان يقرض الشعر ويتعاطاه.

(١) الأغاني ج١١ ص٥.

ابـــن عُثيميـــن

ابن تيمية

لشعر ابن عثيمين[1]، شاعر الجزيرة العربية في جيلها المنصرم ـ وحقٌّ لنا أن نلقبه كذلك ـ جرس عربي يذكرك بتلك النغمات الفنية الملتهبة، النابضة بأصدق الأحاسيس، والتي كان يرسلها شعراء العربية في عصور ازدهارها، ولاسيما في أماديحهم ومراثيهم، وهي نغمات تسبح في أجواء من الإبداع والإلهام، وتحلق في سماء من الفكر الأصيل، فتضفي على المسلَّمات العقلية طلاءً فنيًّا جميلاً ورونقاً أدبيًّا معبراً، فقيثارة صاحبنا قيثارة عربية الأرومة، نجدية الرداء، جعلت من الشمائل العربية مادتها ومن الفصاحة والبلاغة موردها ومصدرها، وتجاوبت مع الأصداء المدوية من حولها في ألحان شجية عذبة، وفي تطريب نديٍّ جذاب، فبعثت صادق الترانيم وأثارت كامن الهواجس والشجون.. الهواجس التي ظلت ـ على حين من الزمن ـ تخالج قلب كل عربي نتيجة لما عانى منه ضمير الأمة وتاريخها من استكانة وخنوع وهلع.

وُلد محمد بن عبدالله بن عثيمين في بلدة «السلمية» وهي قرية من أعمال الخرج ـ أحد أقاليم اليمامة الشهيرة ـ وذلك في سنة ١٢٧٠هـ. وأمضى صدر شبابه في قريته وفيما حولها. وكانت الحماسة الدينية تعمر الأفئدة، وتغمر النفوس، وتتأجج في الحنايا، والدعوة إلى الحق ملء حظها الفوز والظفر، وكانت الحياة ـ وهي حياة في مجملها ذات بيئة صحراوية ـ ميَّالة إلى الخشونة

(١) عثيمين: تصغير (عثمان) وهي صيغة غير قياسية في علمي النحو والصرف، ولكنها شائعة في لهجة أهل نجد، ولعل لها أصلاً في بعض اللهجات العربية القديمة. أما الصواب ـ كما هو معروف ـ فإن تصغير (عثمان) هو (عثيمان).

والوعوثة، وتقاسي من شح في موارد الرزق والعطاء، فكانت أسباب المعيشة تأخذ على الناس جل حياتهم وكل تفكيرهم.

ولا نشك، بحال من الأحوال، أن شاعرنا ـ وهو الذي قد عايش هذه الحال ـ قد عانى ألواناً مريرة من شظف العيش ورداءة الأحوال، وأنه قد شاهد صنوفاً من المعاناة الصعبة التي مرَّ بها غيره.

ولا نشك أيضاً أنه قد عايش أحداث الفترة المرعبة التي عانت منها اليمامة بخاصة، ونجد بعامة، من جراء ذلك الصراع الدامي، بل الفتنة الهوجاء التي استعر أوارها بين الإمامين عبدالله بن فيصل وأخيه سعود، وهو صراع تداخلت فيه الأهواء. واستغله الأبعدون والغرباء، وبكت له عيون التاريخ حسرة ودماً وفجيعة.

ومن اليقين أن ما زخمت به تلك الحقبة كان ذا تأثير عميق في نفسية شاعرنا وحياته.

لقد هاجر الشاعر ـ مختاراً أو مرغماً ـ من مسقط رأسه إلى مهد رهطه ومنزل أهله.. إلى، حوطة بني تميم[1].. فماذا رأى في مُهاجره من جديد؟.

لا نظن إلا فوارق محدودة، فالبيئة متقاربة الملامح، والحياة متشابهة الصور والمظاهر، والناس هم الناس تقريباً، ونجد من أقصاها إلى أقصاها تموج في أتون المحن، وتضطرب بويلات القلاقل، وتمور كأنها في مخاض، فكان هذا سبباً معقولاً لمغادرة الشاعر مواطن الآباء والأجداد بحثاً عن موارد الرزق، وسعياً وراء حياة الاستقرار. يضاف إلى هذين السببين سبب ثالث كان الحافز المباشر لرحيله. ذلك أن أحد شيوخه ـ وهو العالم عبدالله بن محمد

(١) تبعد حوطة بني تميم عن الرياض نحو مائة وستين كيلاً جنوباً. وتقع السلمية في منتصف الطريق بينهما تقريباً.

الخرجي ـ قد عقد النية على السفر صوب سواحل الخليج، فحزم شاعرنا أمره وقرر الرحيل بصحبة شيخه، وخرج الاثنان ميممين شرقاً نحو رأس الخيمة وأم القوين والشارقة والبحرين. . قاصدين التجارة ونشر الدعوة إلى العقيدة السلفية بين العوام. وفي أثناء مقام شاعرنا بالبحرين كانت له صلة ببعض شيوخها ولاسيما أديب البحرين وشاعرها في زمنه محمد بن عيسى آل خليفة وقد مدحه ابن عثيمين بعدد من قصائده الجياد، ثم استقر به المقام مع شيخه الخرجي في قطر حيث نالا حظوة لدى حكامها من آل ثاني، وخاصة لدى عميدهم الشيخ قاسم بن ثاني، وقد كان على جانب عظيم من الجود والاستقامة والعلم والأدب، وكان يأنس بشاعرنا ويحتفي به ويصطحبه في الحل والترحال، وقد بادل شاعرنا قاسماً وداً بود، وأصدقه الاجلال والمديح، كما أصدق آل ثاني جميعاً مثل ذلك أيضاً. وقد أنشد في الشيخ قاسم وبعض فضلاء عشيرته طائفة من عيون شعره.

* * *

ويفتح الفتى عبدالعزيز آل سعود الاحساء، وينتزعه من مخالب الأتراك سنة ١٣٣١هـ، بتلك المغامرة البارعة المدهشة، فتتفاعل شاعرية «شاعر نجد الكبير» مع الحدث العظيم، فيروح يصوغه بعواطف جياشة، وإعجاب حار، وثناء معطر، لقبلة أنظار العرب وباعث مجدهم:

المجد والعز في الهندية القُضُبِ
لا في الرسائل والتنميق للخطب!
تقضي المواضي فيقضي حكمُها أَمَماً
إن خالج الشكُّ رأيَ الحاذقِ الأَرِبِ
وليس يبني العلا إلا ندىً ووغىً
هما المعارج للأسنى من الرتب

ومُـشْـمَـعِـلٌ أخـو عز يشـيِّعـه
قلب صروم إذا ما همّ لم يهـب[1]
لله طـلاَّب أوتـار أعـدَّ لهـا
سعـياً حثـيثـاً بعـزم غير مؤتـشـب!
ذاك الإمـام الـذي كادت عزائـمـه
تسـمـو به فوق هام الـنسـر والقُـطبِ
(عبـدالعـزيز) الـذي ذلّت لسـطوتـه
شوسُ الـجبـابـر من عُجْمٍ ومن عرب

ويمضي في القصيدة ليقول:

قال: الـنـزال لنـا في الحـرب شِنْشِنـة
نمشي إليهـا ولـو جثياً على الـركب[2]
فسـار من نفـسـه في جحـفـل حَرِدٍ
وسـار من جيشـه في عسكـر لجِبِ[3]
حتـى تسـوَّر حيطانـاً وأبـنـيةً
لولا الـقـضـاءُ لمـا أدْرِكـنَ بالـسـبب
لكـنـهـا عزمـة من فاتـكٍ بطلٍ
حمى بهـا حوزة الإسـلام والـحـسـب
فبـيَّت الـقـومَ صرعـى خمـرِ نومـهـمُ
وآخـرين سُكـارى بابـنـة الـعـنـب
في ليلةٍ شاب ـ قبـل الصبح ـ مَفْرقهـا
لو كان تعـقـل لم تملك من الـرعـب

---

(١) مشمعل: ماضي العزيمة.
(٢) شِنْشِنة: طبع وعادة.
(٣) جحفل: جيش عظيم، حرد: غاضب تواق إلى الحرب.

ألـقـحـتـهـا في هزيع الليل فامتخضت
قبـل الـصبـاح، فألقت بيضـة الحُقُبِ
كانـوا يعـدونـهـا نحـسـاً مذمـمـةً
والله قدرهـا فراجـةَ الـكُـرَب

ويقول:

شكـراً بني (هَـجَـرٍ) للمـقـرنيّ فقـد
من قبـله كنـتـمُ في هُوَّة الـعـطب[1]
قد كنـتـمُ قبـله نهـبـاً بمـضـيعـةٍ
ما بين مُفْـتَـرَسٍ منـكـم ومُسْـتَـلَب
«رُومٌ» تحـكّـم فيكـم رأي ذي سفـهٍ
أحـكـامَ معـتـقـد الـتـثـليث والـصُّلُبِ
ولـلأعـاريب في أمـوالـكـم عبـث
يمـرونكم مَرْيَ ذات الصنو في الحلب
وقـبـلكـم جُنّ (نـجـد) واسـتُـطير به
فمـاذَه بشِـفـاه الـبـيض والـيلَبْ[2]

وهذه القصيدة ـ فيما يبدو ـ معارضة لقصيدة أبي تمام في فتح (عمورية) التي مطلعها:

السيف أصـدق انبـاء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

والقصيدة ورصيفـاتهـا الأخـريات في ديوان شاعـرنا، تعود بنا إلى دنيا الشـاعرية العربية في أوج ازدهارها، حيث نجد نبرات تلك الشاعرية ونشم

---

(١) هجر: الأحساء، المقرني: الملك عبدالعزيز نسبة إلى (مقرن) جد الأسرة السعودية.

(٢) ماذ: عالج، شفار البيض: حدود السيوف، اليلب: لباس من ألبسة الحرب القديمة.

رياحينها العبقة وكأننا مع شاعر يعايش الأعشى أو المتنبيء أو أبا تمام أو ابن مقرب. . شاعر يزخر شعره باللفظ اللغوي المنتقى وبالعبارة الجزلة والأسلوب الأخاذ. . فضلاً عن روح الحماسة المتأججة لديه، وعن صدق الغاية والغرض في شعره. ولا يكاد يشوب شعره ضعف ولا لغو ولا تجوز ولا قلق. وهو ينحو منحى الأقدمين في بدء القصيدة بغرض مغاير لموضوعها كالتشبيب مثلاً حتى إذا ما أوغل قليلاً انحنى بلفتة مبدعة إلى غرضه.

وأكثر ما أبدع فيه ابن عثيمين هو الأماديح والمراثي، وقد كان فيهما صادق التعبير عن وجدانه ومشاعره وعن هموم فؤاده، وما ورد فيهما كان إفصاحاً عن خلجات الرأي من حوله دون تزلف.

وهاك مثالاً لمراثيه، بعض أبيات مختارة من قصيدة يرثي بها صديقه راوية نجد، بل راوية العرب عبدالله بن أحمد العجيري[1]، الذي اخترمته أيدي المنون عام ١٣٥٢هـ.

هو الـمـوت ما منـه ملاذ ومـهـربُ
متـى حُطّ ذا عن نعـشـه ذاك يركـب
نشـاهـد ذا عين الـيقـين حقـيقـة
عليه مضـى طفـل وكـهـل وأشـيب

(١) يعد العجيري، ولاشك، واحداً من أعلام الرواية في تاريخ الأدب العربي بأجمعه؛ فكان قوي الحافظة، واسع الاطلاع على كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر، لا يكاد يغيب عن باله شيء مما ورد في تلك الكتب والدواوين. يظل الساعات الطوال يتلو ويروي من الأخبار والأشعار وكأنه يقرأ في كتاب. وقد رافق الملك عبدالعزيز في بعض تنقلاته ومنها سفره من الرياض إلى مكة عام ١٣٤٤هـ فكان ـ وهو على ظهر راحلته ـ سمير السفر، ولا يكاد يعيد قولاً أورده من قبل، يشهد بهذا معاصروه ومرافقوه ومنهم الشيخ يوسف ياسين الذي كتب عن العجيري وعن رواياته وموهبته في الحفظ ضمن ما كتب عن الرحلة. . كما رثت صحيفة أم القرى العجيري حين وفاته بكلمة تحت عنوان (مات أديب نجد). وللشاعر اللبناني الكبير بولس سلامة في ملحمته العظيمة (عيد الرياض) إطراء شعري شيق ورائع لأدب العجيري وعلمه ومواهبه.

ومنها:

سقى جدثـاً وارى (ابن أحمـد) وابـلٌ
من العفـو رجّـاس العـشِيّات صيِّب
فقـد كان في صدر المجـالس بهجـة
به تحـدق الأبـصـار والـقـلب يرهـب
فلو كان يُفـدى بالـنـفـوس ومـا غلا
لطبـنـا نفـوسـاً بالـذي كان يطلب
ولـكـن إذا تم الـمـدى نفـذ الـقـضـا
ومـا لامـريء عمـا قضى الله مهـرب
أخ كان لي نعـم الـمـعـين على الـتـقى
به تنـجـلي عني الـهـمـوم وتـذهـب
لكـل اجـتـمـاع من خليلين فُرقـة
ولـو بينـهـم قد طاب عيش ومـشـرب

هي ذي دمعة حَرَّى من مقلة راعها فراق صديق صدوق ورفيق أدب وعلم وود!.

* * *

وأكثر شعر ابن عثيمين كان من البحور الطويلة، كالبسيط والطويل، وهذا يعني أنه قد خاض معركة فنية ناجحة، فلقد قال نقاد الأدب إن بحر البسيط هو معيار الشاعر، فهو إما أن يجعل الشاعر في القمة وإما أن يهوي به في الحضيض لأنه يكشف ستر القائل بسرعة، وقد كان عثيمين من الصنف الأول، فهو بحقٍ علم بارز من أعلام الشعر العربي في القرن الرابع عشر الهجري.

* * *

وظل ابن عثيمين يقرض الشعر حتى الخامسة والثمانين من عمره، وذلك أمر نادر في تاريخ الأدب العربي، وقد توفي في ذي الحجة ١٣٦٣هـ وله من العمر ثلاث وتسعون سنة[1].

ومات القائل:

وتستحث منايانا رواحلَنا ... لموقف مالنا عن دونه صَدَرُ

والقائل:

لا تستطلْ غفوةَ الأيام إن لها ... وشْكَ انتباهٍ يُرَى موجودُها عدما

---

(١) لابد من كلمة نقولها عن جامع ديوان ابن عثيمين ومبوبه وشارحه ومُعرِّفه بالجمهور الأدبي في العالم العربي، وهو الشيخ سعد بن عبدالعزيز بن رويشد، فقد قدم لأدب بلادنا خدمة لن تنسى.. فله الشكر على هذا الصنيع العظيم.

شعـــراء آخـــرون..

لم أشأ التوسع في مباحثي هذه؛ فلم أعنَ أو أترجم لشعراء يماميين آخرين - مع أنهم ليسوا قليلين عدداً -. ومرد ذلك أنهم كانوا مقلين في أشعارهم. كان الواحد يقول البيت أو البيتين أو المقطوعة أو الأرجوزة.. وبمعنى أدق: لم يكونوا محترفين قرضَ الشعر، ولاهم ممن أدمن ممارسته.

ومن هؤلاء نشير - على سبيل المثال - إلى:

* عمرو بن الذارع الحنفي. وقد عاش في العهد الجاهلي، وشهد بعض أيام العرب، ومنها يوم النشناش[1] بين بني عامر وأهل اليمامة.. يقول عمرو:

أجـدَّا لسُعْـدَى السيرَ إذ بنتمـا بها ... وقـولا لسعـدى لا نمير بن عامـر
فقـد بدَّلتْ ركبـاً جنـاباً بأهلهـا ... وتـركبهـا في السيرِ سيرِ الهـواجـر
إذا نحن شئنـا زوَّجتنـا رمـاحنـا ... كمـا أمكنتنـا من بنـاتِ المهـاجـر

* عمرو بن شَمْر الحنفي. اشتهر باغتياله المنذر بن ماء السماء في قصة معروفة ليس هنا مجال إيرادها. ومن قوله:

ويوم حقـيقٍ قد فدوت بفـتـيةٍ ... كمثـل الأسـود جازراً بسِنـانِيَهْ

* مُجَّاعة بن مُرَارة بن سُلْمي الحنفي (توفي عام ٤٥هـ تقريباً). كان من أتبـاع مسيلمة بن حبيب (الملقب بالكذاب). وحضر جانباً من حروب الردة باليمامة. ثم أسلم. وتزوج خالد بن الوليد ابنته. وصحب رسول الله ﷺ: ومن حكيم قوله: «إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمـال عنـد من لا ينفقه، ضاعت الأمور» قال هذا لأبي بكر[2]. عرف

(١) سمي كذلك لوقوعه في وادٍ بهذا الاسم في غرب اليمامة.
(٢) الأعلام ج٦ ص١٦٠.

بالحكمة وسداد المشورة. ومن مأثور شعره:

تعـذَّرتَ لمـا لم تجـد لك علةً مُعـاوي. إن الاعتـذار من البخـل
ولاسـيمـا إن كان من غير عُشـرة ولا بغضـةٍ كانت عليّ ولا ذحـل

* عمارة بن فراس الحنفي. شاعر أموي. صحب القائد الأموي نصر بن سيار في بلاد خراسان، وشهد الفتنة التي نشبت هناك بسبب العصبيات القبلية العربية.

وله في ذكرها:

أمست ربيعـة في مرو وإخـوتهـا على عظيمٍ من الأحـداث والخطر
يا ليت شعري بمرو الشاهجان غداً أي الأميرين من بكـرٍ ومن مضـر
يصـلى بقتـلٍ ذريعٌ في مُغَمّضـةٍ حتـى يصـير ذليلاً غير ذي نفـر

* علي بن هوذة الحنفي: وهو ابن زعيم اليمامة في الجاهلية هوذة بن علي. ومن قوله، معتذراً عن قومه في ردتهم واتباعهم مسيلمة وحربهم المسلمين[1]:

رمتنـا القـبـائـل بالمنكـرات ومـا نحـن إلا كمـن قد جحـد
ولـسـنـا بأكـفـر من عامـر ولا غطفـان ولا من أسـد
ولا من سُليم وألـفـافـهـا ولا من تمـيم وأهـل الـجـنـد
ولا ذي الـخـمـار ولا قومـه ولا أشعـث الـعـرب لولا النكـد
ولا من عرانـين من وائـل بسـوق الـنجـير وسـوق الـنقـد
وكـنـا أنـاسـاً على غرةٍ نرى الأمـر من غينـا كالـرشـد
ندين كمـا دان (كـذابـنـا) فيا ليت والـده لم يلد!

* عصام بن عبيد الزمَّاني، عاش في العهد الأموي، وكان معاصراً لشاعر يمامي آخر هو يحي بن أبي حفصة[2] وللشاعر اليمامي الفحل جرير بن عطية.

(١) تاريخ اليمامة، ابن خميس ج٢ ص٢١٨.
(٢) سبقت ترجمة يحي، وهو جد الشاعر مروان ابن أبي حفصة الذي سبق الحديث عنه أيضاً.

ومن شعر عصام قوله عندما تزوج يحي بن أبي حفصة بنت طلبة بن قيس بن عاصم، من بني منقر، وكان نسب آل حفصة محل أخذ ورد عند بعض العرب:

أرى (حجراً) تغيَّر واقشعرا ... وبُدِّل بعد حلو العيش مُرَّا
وبُدِّل بعد ساكنه الموالي ... كفى (حجراً) بذاك اليوم شرا

وقد أجابه يحي بن أبي حفصة بأبيات منها:

ألا من مبلغ عني (عصاماً) ... بأني سوف أنقض ما أمرَّا..؟

ولم يصلنا من شعر الاثنين ـ عصام ويحي ـ إلا النزر اليسير جداً.

وعصام هو القائل:

أبلغ بني (مِسْمَعٍ) عني مغلغلةً
وفي العتاب حياة بين الاقوام
أدخلت قبلي قوماً لم يكن لهمُ
في الحق أن يدخلوا الأبواب قدامي
لو عد قبر وقبر كنت أكرمهم
ميتاً وأبعدهم عن منزل الذام[1]

وهذا الأنموذج القليل من شعر عصام بن عبيد، يدلنا على أنه غزير الشاعرية متينها. فأين شعره؟.. بل أين شعر الاثنين؟.. وأين شعر عشرات من شعراء اليمامة لا نعرف عنهم إلا مجرد أسمائهم تمر عابرةً في صفحات كتب التراث الأدبي.

* هشام بن قيس المِرَئي، الذي اشتهر بمهاجاته لذي الرمة. وكان راجزاً.

---

(١) في بعض الروايات:

لو عدت بيتاً وبيت كنت أكرمهم ... بيتاً وأبعدهم عن منزل الذام

الذام: العيب.

ولعل معظم الشعر الذي ينسب إليه في مهاجاة ذي الرمة كان من صنع جرير ابن الخطفى[1].

* جميل بن يحي بن أبي حفصة، قتيل الهوى كما لقَّب نفسه.. عاش في العهد الأموي.. ومن لطيف شعره:

قُلنَ: من ذا؟.. قلتُ هذا (الـيمـا
ميُّ) قتيل الـهـوى (أبـو الـخـطاب)
قلن: بالله أنـت ذاك يقـينـاً؟
لا تقـل قول مازح كذاب
إن تكـن أنـت هو. فأنـت منـانـا
خالـياً كنـتَ، أو مع الأصـحـاب

* وابنه (المؤمل) الذي أدرك العصر العباسي إبان ازدهاره، ومدح الخليفة المهدي.. وكان شاعراً غَزِلاً أيضاً.. ومن غزله الخفيف[2]:

يا أح[3].. من حر الـجـوى إنـمـا
يعـرف حَرَّ الـحـب من جربـا
أصـبـحـت للحـب أسـيراً فقـد
صعَّـدنـي الـحـب، وقـد صوَّبـا
لاشـك أنـي ميتٌ حسـرةً
إن لم أزر - قبـل غدٍ - زينـبـا
تلك الـتـي إن نلتُـهـا لم أبَـل
مَنْ شرَّق - الـدهـرَ - ومـن غرَّبـا

---

(١) الأغاني ج١٦ ص١٠٨.

(٢) مجلة العرب ج٨ ص٦٨٢.

(٣) أح: كلمة تعبر عن لذعة الألم أو النار. ولا تزال تستعمل في لهجة نجد العامية اليوم.

* محمود بن مروان بن أبي الجنوب الحفصي، كان ذا مقام ووجاهة لدى خلفاء العباسيين الذين عاصرهم. وقد ولاه المعتز أمر اليمامة والبحرين. وهو صاحب البيتين المأثورين:

لي حيلة فيمن ينمُّ (م) وليس في الكذاب حيلهْ
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلهْ

* عَنَان.. وهي جارية جميلة، سريعة البديهة، حاصرة الخاطرة، رقيقة الحاشية. ولدت ونشأت في اليمامة، وانتهى بها الأمر إلى نخَّاس بغدادي يُدعى الناطفي. وكانت أديبة وشاعرة، ولها قصص كثيرة وظريفة مع شعراء زمانها كأبي نواس والشاعر الظريف أبان بن عبدالحميد اللاحقي وأبي النظير عمر بن عبدالملك ـ مولى بني جمح ـ وبكر بن حماد ـ شاعر باهلة ـ كانت تقول البيتين والثلاثة ارتجالاً في ظرافة وخفة روح، وكانت تُجيز[1] للشعراء عندما يطارحونها الأدب والشعر في منتديات بغداد.

ويقال إن الرشيد سَمَرَ ذات ليلة مع بعض خواصه، فغناه أحد الحضور قول جرير:

إن الذين غدوا بلُبِّك غادروا وَشَلاً بعينك لا يزال معينا

فطرب له الرشيد كثيراً، وطلب من جلسائه إجازة ذلك، فلم يستطيعوا، فقال أحد خدمه: «أنا بها لك يا أمير المؤمنين». فقال له: «شأنَك». فاحتمل كيساً به قدر من المال كان الرشيد قد خصصه جائزةً لمن يُجيز هذا البيت، ومضى إلى بيت الناطفي، وأخبر (عناناً) الخبر، وأنشدها البيت، فأملت عليه:

هيَّجتَ بالقول الذي قد قُلتَهُ
داءً بقلبي ما يزال كمينا

(١) إجازة الشعر هي أن يقول شاعر صدر البيت، فيأتي بعجزه على الفور شاعر آخر، أو يقول شاعر بيتاً فيأتي الآخر بالبيت الآخر في الحال.

قد أينعت ثمراته في حينها
وسُقينَ من ماء الهوى فَرُوينا
كذب الذين تَقَوَّلوا يا سيدي
إن القلوب إذا هَوَيْنَ هَوِينا

ودفع الكيس لها، وعاد إلى الرشيد، فأعجب بالشعر، وسأل عن قائله، فأخبره الخادم بأنها عنان. . وتقول الرواية إن الرشيد اشترى عناناً من ساعته وصارت من أهله.

توفيت سنة ٢٢٦هـ[١].

* أحمد بن أبي رياش. كان حفياً برواية الشعر، ومتمكناً من علوم اللغة، فهو معدود من علمائها. . ومما يروى من شعره[٢]:

وقائلةٍ قد مدحتَ الوزيـ ـر وهو المؤمل والمستماحْ
فماذا أفادك ذاك المديـ ـحُ وهذا الغدوُّ وهذا الرواحْ؟
فقلت لها: ليس يدري امرؤ بأي الأمور يكون الصلاحْ؟
عليّ التقلب والاضطرا بُ ـ جهدي ـ وليس عليّ النجاح!

ولأديبنا هذا شرح على حماسة أبي تمام.

توفي سنة ٣٣٩هـ.

هذا، ولقد ضربت صفحاً عن عدد ممن نسبت لهم بعض الروايات شعراً في عهود موغلة في القدم، من العرب اليماميين البائدين، من طسم وجديس مثلاً، . . ميلاً منا إلى الشك في حقيقة قائلي تلك الأشعار وأنها قد تكون قيلت على ألسنتهم من لدن الراوين في عصور متأخرة.

---

(١) الشاعرات من النساء لسلم التنير ص٢٥٠.

(٢) معجم البلدان ج٢ ص١٢٣، يتيمة الدهر ج٢ ص٣٥١، ٣٤٧.

أهم مراجع الكتاب

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني.
(٢) الحماسة، جمع أبي تمام الطائي.
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة.
(٤) معجم الشعراء، لمحمد بن عمران المرزباني.
(٥) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين.
(٦) في الأدب الجاهلي، للدكتور طه حسين.
(٧) تاريخ الأدب العربي، للأستاذ أحمد حسن الزيات.
(٨) معجم البلدان، لياقوت الحموي.
(٩) طبقات الشعراء، لابن المعتز.
(١٠) وفيات الأعيان لابن خلكان.
(١١) الأعلام، لخير الدين الزركلي.
(١٢) العشاق الثلاثة للدكتور زكي مبارك.
(١٣) صبح الأعشى، للقلقشندي.
(١٤) يتيمة الدهر للثعالبي.
(١٥) بحوث الأستاذ البحاثة حمد الجاسر في بعض المجلات العربية.
(١٦) بعض مذكرات مدرسية لبعض الأساتذة بكلية اللغة العربية بالرياض عام ١٣٧٦هـ.

فهرس الأمكنة

(أ)

أباض ٥٩
الأبلق ٣٣
أثيفية ٧٢، ١٥٣
الأحساء ١٤، ١٧٨، ١٨٠
الأدمى ٨٠
أرشليم ٣٣
الأفلاج ١٠
أم القوين ١٧٨

(ب)

بانقيا ٣٣
باريس ٤١
البحرين ٨٠، ١٧٨، ١٩٠
البركة ٥١
البرة ٩٩
برقة الروحان ٨٠
البصر ٨١
البصرة ٨٨، ٩٢، ١٢٥، ١٤٤، ١٥٨، ١٥٩
البطحاء ٢٨، ٣٣
البطين ٩٩
بعيجاء ٣٣
بغداد ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩، ١٤٤، ١٥٨، ١٩٠

(ت)

تبراك ١٠٦
ترياع ٨١
توضح ١٠٣
تهامة ١٤، ٧٩

(ث)

ثرمداء ٧٩
الثويرات ٨١

(ج)

الجبل ١١٠
جرجان ١٢٥
جزرة ٨١
جزيرة العرب، الجزيرة العربية، ٢٠، ٣٠، ٣٢، ٥٠، ٧٩، ٩٩، ١٠٥، ١٥٩، ١٧٦
الجزيرة الفراتية ٨٨
الجسر ١١٤

(ح)

حاجز ٣٣
حائر ٣٣
الحبشة ٣٢
الحجاز ٢٠
حجر ٢٨، ٨١، ٩٦، ١٠٢، ١٢٣، ١٨٨
الحجيلاء ١٠٤
الحريق ١٠
حريملاء ٢٠
حزرة ٨١
حلوان ١١٠
حمص ٣٣
حنيفة (وادي) ٣٣، ٥٠
حوس (وادي) ٥١
حوطة بني تميم ١٠، ١٧٧
الحيرة ٢٠، ٣٢، ٣٤، ٣٩، ٤٣، ١٦٠
الحيسية ٥٠، ١٠٠

(خ)

خراسان ١١٦، ١٢٥، ١٤٤، ١٨٧
الخرج ١٠، ٥٠، ٨٠، ١٠٠، ١٧٦
الخليج العربي ١٧٨

(د)
الدام ٨٠
دارين ٧٩
دجلة ١٠٢
الدرعية ٢٩
دمشق ٨٢، ٨٥، ١٢٥
الدهناء ١٠، ٧٩، ٨٠
الديلم ١١٠
(ذ)
ذو طلوح ٨١، ٨٢
(ر)
رأس الخيمة ١٧٨
الربذة ٥١
رجلتي بقر ٨١
رحرحان ٥١
الري ٧٤، ١٠٣
الرصافة ١١٤
رماح ٨٠
الرياض ٧، ١٥، ٢٨، ٣٣، ٧٣، ١٠٦، ١٧٧، ١٨١
(س)
سواد باهلة ٨١
السراة (جبال) ١٠، ١٤
السواجير (عين) ٧٦
سدير ١٠
السلان (وادي) ٧٨
السلمية ١٧٦، ١٧٧
السماوة ٨٢
السهباء ٨٠
السيوح ١٧٠
(ش)
الشارقة ١٧٨
الشام ٣٢، ٤٣، ٧٦، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥
الشط ٣٣
شعبعب ١٠٦
الشعيب ١٠، ١٠٠
(ص)
الصمان ٨٠
صنعاء ١٣٩
(ط)
طبرستان ١٢٥
طويق ١٠٠
(ع)
العارض ١٠
عدن ٣٣
العراق ٣٣، ٣٩، ٨٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٥، ١٦٠
العرض (وادي) ٢٨، ٣٣، ١٠٢
العرق (وادي) ٧٨
عرمة ٢٩
العرمة ٨٠
العطن ١٠٦
عكاظ ٣٥، ٩٣
عُمان ٣٣
عمورية ١٨٠
(غ)
الغرف ٨٠

(ف)
فارس ٣٢، ١٠٢، ١٠٣، ١١٠
الفرع ١٠
فيحان ٨٠
(ق)
القاعة ٧٥
قران (القرينة) ٢٠، ١٠٠
قرقرى ٩٩، ١٠٠، ١٠٥
القراح ٨٠
قطر ١٧٨
القطيف ٧٩
قنيفذة ١٠٦
القويعية ٨١، ١٠٦
(ك)
كحيل (وادي) ١٠٠
الكلاب (ماء) ٨٩
(ل)
لحاء (وادي) ٣٣
(م)
مارد ٣٣
المحمل ١٠
المدينة ٨٨
المربد ٩٢، ٩٥
المروت (وادي) ١٠٦
مصر ١٣٤
معتق (سجن) ٣٣
المغرزات ٣٣
مكة المكرمة ١٠١، ١٨١
ملهم ٢٠
منفوحة ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٦
مهد الذهب ٥١
مهراس ٣٣
(ن)
نجد ١٠، ٣٢، ٧٩، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٩
نجران ٢٠، ٣٤، ٤٣
النجف ٣٣
النظيم ١٣٨
النيل ٤٣
(و)
واردات ٢٣
واقم (حصن) ٨٧
الوتر (وادي) ٢٨، ٣٣
الوشم ١٠، ١٥٧
الوكف ٨٠
(هـ)
هجر (الأحساء) ١٤، ١٨٠
الهدار ٥٩
الهند ١١٠
(ي)
اليمامة ١٠، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٣٩، ٤٣، ٥٠، ٦٣، ٧٣، ٧٦، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٥، ٩٦، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٩، ١١٣، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٤٤، ١٥٣، ١٦٠، ١٦٨، ١٧٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠
اليمن ١٠، ٣٢، ٤٣، ٤٦

فهرس الأعلام

(أ)

أبان بن عبدالحميد اللاحقي ١٩٠
إبراهيم (عليه السلام) ٣٤
إبراهيم بن عربي ٦٣
أحمد بن أبي رياش ١٩١
أحمد حسن الزيات ٧٧، ٨٨، ١٩٢
أحمد بن الحسين (المتنبيء) ١٨١
أحمد بن محمد النيسابوري الميداني ٥٠
الأخطل = غياث بن غوث التغلبي.
الأزد (القبيلة) ١٢٥
أسد (بنو) ٤١، ٤٢
اسماعيل بن إبراهيم المصعبي ١٦١
اسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) ١١٧
اسماعيل بن القاسم القالي ١٠، ١٠٢، ١٠٥
الأسود بن المنذر ٤١
أعشى قيس = ميمون بن قيس
أعشى باهلة ٢٨
أعشى تغلب ٢٨
أعشى طرود ٢٨
أعشى همدان ٢٨، ٧٩
امريء القيس = جندح بن حجر الكندي
امريء القيس بن عابس الكندي ٢٤
أمية (بنو) ١٢٣
أنف الناقة (بنو) ١٢٣

(ب)

باهلة (قبيلة) ٨١
بشر بن عمرو بن مرثد ٣٩
البرامكة (أسرة) ١٣١
البعيث المجاشعي ٧٦، ٧٩، ٨٧، ٩٣
بكر (القبيلة) ١٨، ١٩، ٢٢
بكر بن النطاح ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٧
بكر بن وائل ٢٢، ١٠٩
بلال بن جرير ٧٤، ٨١، ١٢٢، ١٥٣
بولس سلامة ١٨١

(ت)

تأبط شراً ١٠٦
تغلب (القبيلة) ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٨٥، ١٧٣
تقي الدين بن حجة الحموي ١١٢
تميم (القبيلة) ٥١، ٥٢، ٨٥، ٨٧، ١٠٠، ١٢٣
تيم الرباب (القبيلة) ٤٢

(ج)

الجاحظ = عمرو بن بحر
جرير بن عطية بن الخطفي ١٣، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٢٢، ١٣١، ١٥٣، ١٥٩، ١٦٢، ١٨٧، ١٨٩
جحيش (بنو) ٧٥
جندح بن حجر الكندي (امريء القيس) ١٤، ٣٨
جديس (القبيلة) ١٩١
جعثن (أخت الفرزدق) ٩١
جعفر بن المعتصم (المتوكل) ١٦١، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١
جفنة (آل) ٣٢
جليلة ٢٣
جمح (بنو) ١٩٠
جميل بن معمر (جميل بثينة) ٧٠
جميل بن يحي بن أبي حفصة ١٨٩

(ح)
حاتم الطائي ١٤، ١٦٤
حاتم صالح الضامن ١١٦
حاجب بن زرارة ٩٠
الحارث بن ظالم المري ٥٠، ٥١، ٩٢
الحافظ بن كثير ١١٧، ١٤٨
حبيب بن أوس (أبو تمام) ١٩، ٥٠، ٥١، ١٨١، ١٩١، ١٩٢
الحجاج بن يوسف ١٢٥
حزرة بن جرير ٧٢
حزن (بنو) ١٢٤
حسان بن ثابت
الحسن بن أحمد الهمداني ٨١
الحسن بن رشيق القيرواني ٣٠
حسين عطوان ١٣٤
حكيم بن عطية بن الخطفى ٧٤
حفصة (آل) ١٠٠، ١٢٠، ١٢٩، ١٨٨
حنظلة (بنو) ٧٨
حنيفة (بنو) ١٩، ٤٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٥٨، ٧٩، ١٠٠، ١٤٤
حمد الجاسر ١٢، ١٢٠، ١٢٢، ١٩٢

(خ)
خالد بن جعفر بن كلاب ٥١
خالد القسري ٧٣
خالد بن الوليد ٥٩، ١٨٦
خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ١٦١
خليدة (القينة) ٣٩
خير الدين الزركلي ١٩٢

(ر)
دارم بن مالك ٩٠

(ذ)
ذبيان (القبيلة) ١٦٤
ذو الرمة = غيلان بن عقبة العدوي
ذهل (بنو) ٢١

(ر)
الراعي النميري ٨٧، ٩٣
ربيعة (القبيلة) ٩٥، ١١٠، ١٨٧
رشدي الصالح ملحس ١٠
رودلف جاير (المستشرق) ٣٧

(ز)
الزبير بن العوام ٩١
زكي مبارك ١٤٦، ١٥٣، ١٩٢
زمان بن مالك ١٨
زهير بن أبي سلمى ١٤، ٣٨
زياد بن معاوية (النابغة الذبياني) ٣٨
الزير ٢٣

(س)
سحيم (بنو) ٢٠
سعدى بنت أزهر ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦
سعد بن عبدالعزيز بن رويشد ١٨٣
سعود بن فيصل (الإمام) ١٧٧
سعيد بن العاص ٨٨
سفيان بن عمرو ١٢٥
سلامة ذي فائش ٣٢
سلوستر دي ساسي ٤١
السليك بن سلكة ١٠٩
سلم التنير ١٩١
سليمان بن عبدالملك ١٢٥
السيد (صاحب نجران) ٣٢

(ش)
الشعبي ٣٧
شراحيل بن معن بن زائدة ١٤٠
شرحبيل بن عمرو
شهل بن شيبان (الفند الزماني) ١٦، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥
الشنفري ١٠٩
شيبان (بنو) ١٩، ١٣٨

(ص)
صخر بن حرب (أبو سفيان) ٣٥، ٣٦
(ط)
طسم (القبيلة) ١٩١
طلبة بن قيس بن عاصم ١٢٣، ١٨٨
طه حسين ٤٥، ١٣٤، ١٣٥، ١٩٢
طيء (القبيلة) ٤٣، ١٦٢
(ع)
عاتكة الخزرجي ٤٩
عاد (القبيلة) ٢٢
العاقب (صاحب نجران) ٣٢
عامر (بنو) ١٢٠
عامر بن الطفيل ٤٥
العباس (بنو) ١٣٦
العباس بن الأحنف ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣
عبدالعزيز (الملك) ١٠، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١
عبدالقادر بن عمر البغدادي ٢١
عبدالله (القبيلة) ٤١
عبدالله بن أبي قحافة (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) ١٨٦
عبدالله بن أحمد العجيري ١٨١، ١٨٢
عبدالله أبو جعفر (المنصور) ١٣٨
عبدالله بن دحمان ٢٤
عبدالله بن الزبير ٨٨
عبدالله بن عبدالعزيز البكري ١٠
عبدالله بن قيس الرقيات ٧٠
عبدالله بن فيصل (الإمام) ١٧٧
عبدالله بن المعتز ١١٧، ١٣٩، ١٤٤، ١٥٩، ١٩٢
عبدالمسيح (صاحب نجران) ٣٤
عبدالملك بن عبدالعزيز السلولي (نويب) ٦٠، ٦٢، ١٢٢
عبدالملك بن قريب (الأصمعي) ٢٥، ١٥٣، ١٥٤
عبدالملك بن مروان ٣٧، ٥٧، ٨٢، ٨٥، ١٢٥
عبس (القبيلة) ١٦٤
عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ١٢٠
عجل (بنو) ١٠٩، ١١٠، ١٤٤
عدي بن الرقاع ٨٧
عروة بن الورد ١٠٩
عصام بن عبيد الزماني ١٨٧، ١٨٨
عصم بن النعمان ٨٩
عطية بن الخطفى ٧١، ٩٣
عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع ٩٠
عقيل بن بلال بن جرير ٧٤
عكرمة بن جرير ١٥٣
علقمة بن علاثة ٤٥
علي بن الجهم ١٧١، ١٧٢، ١٧٣
علي بن الحسين (أبو الفرج الأصبهاني) ١١، ٢٨، ٩٣، ١٢٦، ١٧٠، ١٧٣، ١٩٢
علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ١٢١
علي بن مقرب ١٤، ١٨١
علي بن المهاجر الكلابي ١٢٥
علي بن هوذة الحنفي ١٨٧
عمارة بن عقيل ٧٣، ٧٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥
عمارة بن فراس الحنفي ١٨٧
عمر بن عبدالعزيز ٨٢
عمر بن عبدالملك (أبو النظير) ١٩٠

عمر بن أبي ربيعة ٦٣
عمرو بن بحر (الجاحظ) ٦٦، ١٤٦
عمرو بن تميم (بنو) ٧٨
عمرو بن جرموز ٩١
عمرو بن الذارع الحنفي ١٨٦
عمرو بن شمْر الحنفي ١٨٦
عمرو بن عطية بن الخطفى ٧٤
عمرو بن فطن ٢٩
عمرو بن مسعدة ١٦١
عمرو بن هند ٨٩
عنان الناطفية ١٩٠، ١٩١
العنبر (بنو) ٨١
عنترة بن شداد ١٤

(غ)

غسان السليطي ٧٥، ٩٣
الغساسنة ٢٠
غياث بن غوث التغلبي (الأخطل) ٤٦، ٧٠، ٧٦، ٧٧، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٣١

(ف)

فاطمة (رضي الله عنها) ١٣٦، ١٣٧
الفرزدق = همام بن غالب التميمي
فروة بن خميصة الأسدي ١٦٢

(ق)

قاسم بن ثاني ١٧٨
القاسم بن عيسى العجلي (أبو دلف) ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣
قتادة بن مسلمة ٥٠، ٥١
قريش (القبيلة) ٣٥، ٨٥
قشير (القبيلة) ١٠٠، ١٠٦
قطري بن الفجاءة ٧٠
القلاح بن حزن المنقري ١٢٤
قيس (القبيلة) ٣٠
قيس بن عاصم ١١٦، ١٢٣، ١٢٤
قيس بن الحدادية ١٠٩
قيس بن معدي كرب ٤٢، ٤٦

(ك)

كُثير بن عبدالرحمن الخزاعي (كثير عزة) ٧٠
كليب (القبيلة) ٢٣
كليب بن يربوع ٧٢، ٨٥
كندة (القبيلة) ٤٣

(ل)

لويس شيخو ٢٠، ٢٩

(م)

مالك الخزاعي ١١٦
مالك بن مسمع ١٢١
متوج الحفصي ١٢٢
مجاعة بن مرارة بن سُلمي الحنفي ١٨٦
المحلق ٤٤
محمد بن أبي جعفر المنصور (المهدي) ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٨٩
محمد بن ادريس بن أبي حفصة ١٢٠
محمد بن عبدالله بن عثيمين ١٧٤، ١٧٦، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣
محمد بن عمران المرزباني ٣٠، ١٩٢
محمد بن عيسى آل خليفة ١٧٨
محمد بن قتيبة ٢٥، ٢٩، ١٩٢
محمد بن هارون الرشيد (المعتصم) ١٦١
محمود سامي البارودي ١٤٩
محمود بن مروان بن أبي حفصة ١٨٩
مربع (راوية جرير) ٩٣
مروان (آل) ١٢٠، ١٢٩

مروان بن الحكم ١٢٠، ١٢١، ١٢٩
مروان بن سليمان بن أبي حفصة ١٢٢، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٦٨، ١٨٧
مروان بن محمد ١٣٠، ١٣١
مروان بن يحي بن مروان بن سليمان بن أبي حفصة ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣
مسلم بن الوليد ١٤٤
مسلمة بن عبدالملك ١٢٥
المسيب بن غلس ٢٩
مسيلمة بن حبيب ٤٤، ٥٩، ١٨٦، ١٨٧
مضر ٨٥، ٩٥
معد بن عدنان ٤٣
معقل بن عيسى العجلي ١١٣، ١١٦
معن بن زائدة الشيباني ١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١
المناذرة ٣٢
المنخل البشكري ٢٥
المنذر بن ماء السماء ١٨٦
منقر (بنو) ١٢٣، ١٨٨
الوليد بن يزيد ١٢٥
المؤمل بن جميل بن أبي حفصة ١٩٠
موسى بن جابر ٥٤، ٥٧
موسى الهادي ١٤٠، ١٩٠، ١٩١
المهلهل ٨٩
المهير بن سلمي الحنفي ١٢٥، ١٢٦
ميمون بن قيس (أعشى قيس) ١٣، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٧٠، ١٣٣، ١٨١

(ن)

النابغة الذبياني = زياد بن معاوية
نصر بن سبار ١٨٧
النعمان (الملك) ٣٩، ٤١، ٩٢، ١٦٠
نويب السلولي = عبدالملك بن عبدالعزيز السلولي
نوح (عليه السلام) ٩٣
نوح بن جرير ١٥٣

(هـ)

الهادي = موسى الهادي
هارون (الرشيد) ١١٠، ١٣١، ١٤٨، ١٥٣
هارون (الواثق) ١٦١
هرم بن سنان ١٦٤
هريرة (قينة) ٣٩
همام بن غالب التميمي (الفرزدق) ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٥، ١٣١

(ي)

ياقوت الحموي ١٠، ٧٥، ١٢٠، ١٩٢
يحيى بن أبي الجنوب الحفصي ١٤٠، ١٤١
يحي بن أبي حفصة ٦٦، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٩، ١٦٨، ١٨٧، ١٨٨
يحي بن طالب ١٢، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١
يربوع (بنو) ٧٦، ٨١، ٨٥، ٨٩
يزيد بن أبي حفصة ١٢٠
يزيد بن عبدالملك ٨٠، ٨٢
يزيد بن مزيد ١١٠
يزيد بن مسهر الشيباني ٤٠
يزيد بن معاوية ٨٨
يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ١٢٤، ١٢٥
يوسف يسن ١٨١
يونس بن حبيب ١٣٢

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
الاهداء	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة	٩
الفند الزماني	١٦
الأعشى	٢٦
قتادة بن مسلمة الحنفي	٤٨
موسى بن جابر الحنفي	٥٤
نويب السلولي	٦٠
جرير	٦٨
يحي بن طالب	٩٧
بكر بن النطاح	١٠٧
يحي بن أبي حفصة	١١٨
مروان بن أبي حفصة	١٢٧
العباس بن الأحنف	١٤٢
عمارة بن عقيل	١٥٥
مران الأصغر	١٦٦
محمد بن عثيمين	١٧٤
شعراء آخرون	١٨٤
أهم مراجع الكتاب	١٩٢

طبع بمطابع دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة
ص ب ٢١٢٩١ الرياض ـ ١١٤٧٥ ـ تليفون ٠ فاكس ٤٨٨٠٠٤٧